سورة الضحى

مكية وهي اثنتا عشرة آية مع البسملة وهي ركوع واحد

يقول ابن عباس: هذه السورة نزلت بمكة. ويقول البعض إنها نزلت بعدما انقطع الوحي عن النبي ﷺ مدة من الزمن، ولذلك كان النبي كلما قرأها أو سمع تلاوتها أمر بالتكبير (فتح البيان). وفي رواية أنه ﷺ كان يقول: الله أكبر. وفي رواية أخرى أنه كان يقول: الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر.

وورد في البخاري: اشْتَكَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا، فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ؛ لَمْ أَرَهُ قَرِبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلاثَةٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿وَالضُّحَى﴾. (البخاري، كتاب التفسير)

يبدو أن الرسول ﷺ كان يرفع صوته بقراءة القرآن في صلاة التهجد، وكانت هذه المرأة تظن أن ما يقرأه ﷺ إنما يُعَلِّمُه غيره، وحين لم يستطع القيام بالليل لمرضه ليلتين أو ثلاثا، ظنت أن الشخص أو الروح الذي كان يعلّمه –والعياذ بالله– تركه، وعندها نـــزلت سورة الضحى.

وفي رواية عن جُنْدُب أن جبريل أبطأ عن النبي ﷺ بالوحي فترة من الزمن، فقال الكافرون: قد وُدِّعَ محمد، فنـــزلت ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ (الترمذي، أبواب التفسير)

وفي رواية أخرى عَنْ جُنْدُب قَالَ: احْتَبَسَ جبْرِيلُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ بَعْضُ بناتِ عَمِّهِ: مَا أَرَى صَاحِبَكَ إِلا قَدْ قَلاكَ، قَالَ: فَنَزَلَتْ هذه السورة. (المعجم الكبير للطبراني، حديث رقم ١٧١٠)

لقد قالت: "صاحبك"، ليفسّر الجميع حسب رأيه، فمن رأى أن الله تعالى هو الذي يكلمه ﷺ وينـــزل عليه هذا الوحي فيفسر "صاحبك" بأنه الله، ومن ظن أن الشيطان هو منـــزِّل هذا الكلام، فيفسّر "صاحبك" بالشيطان.

هذا ما يروى عن سبب نزول هذه السورة، فإحدى هذه الروايات تقول إن امرأة قالت للنبي ﷺ هذا الكلام، والأخرى تقول إن الكافرين قالوا ذلك، والثالثة تقول إن إحدى بنات عمه قالته. والآن أمامنا طريقان: فإما أن نعتبر هذه الروايات كلها باطلة فنقول لا علاقة لها بنـــزول هذه السورة، أو نقول –وهو الصحيح عندي– إن الواقع أن الناس يعلّقون على حادث بأقوال مختلفة، فيأتي الآخرون ويربطون منها ما هو مقارب للحادث. فمثلا تلقى المسيح الموعود عليه السلام ذات مرة إلهامًا باللغة الإنجليزية: A word and two girls (التذكرة، ص ٥٠٥).. أي كلمةٌ وبنتانِ. وكان "الحافظ أحمدُ الله" قادمًا إلى قاديان، فسأل في الطريق أحدَ الإخوة: هل مِن وحي جديد نـــزل عليه عليه السلام؟ فقال: نعم، لقد تلقى وحيًا يقول: A word and two girls. فأخذ "الحافظ أحمد الله" ورقة وكتب فيها له عليه السلام: مباركٌ، فقد تحقّقَ وحيُك، إذ لم آتِ وحدي، بل معي بنتان. وهذا الوحي ينطبق علينا.

ثم رأيت غيره يطبّقون هذا الإلهام على أنفسهم إذ كان عندهم أيضًا ولدٌ وبنتانِ، وقد بلغ عدد الذين طبقوا هذا الوحي على أنفسهم بتأويلات مختلفة حوالي أربعة وعشرين شخصًا. فثبت أنه تقع أحيانا أحداث مماثلة يطبق عليها الناس كلمات الوحي بحسب آرائهم، ويظنون أنهم قد عرفوا سبب نزوله. مع أن معنى الوحي إنما يُعرف بسياقه، أما إذا فُصل عن سياقه، فكل فقرة منه يمكن أن تفسَّر بمعان مختلفة. فمثلا: إذا سمعنا شخصًا يقول: تعال هنا، فيُعرف مراده بالسياق، فإذا كان أمامه زيدٌ، فيدرك الجميع أنه يوجه هذا الكلام لزيد لا غيرِه، ولكننا لو فصلنا هذه العبارة عن سياقها، فيمكن تطبيقها على أي شخص في العالم. وبالمثل فعندما يقال أن آية كيت نـــزلتْ في مناسبة كيت، فإنما سببه أن الناس وجدوا حادثًا مماثلا في زمن مقارب لنـــزولها، فظنوا أنه هو سبب نزولها، وطبقوها في رأيهم على ذلك الحادث، وإذا كان هناك أكثر من حادث، فتختلف الروايات لكثرة الآراء التي

أساسها الاستنباط. وهذا ما نجده في شأن نزول هذه السورة، حيث تُقدَّم ثلاثة أحداث مختلفة، فهناك رواية تقول أن هذه السورة قد نزلت بسبب ما قالته امرأةٌ للنبي ﷺ، بينما تقول رواية أخرى إنها نزلت بسبب أفكار الكافرين العامة، وتقول رواية ثالثة إنها نزلت بسبب ما قالت إحدى بنات عمّه ﷺ. لا شك أن هذه السورة من أوائل السور، ولا شك أيضا أن الوحي فتر بعض الوقت في بداية البعثة، لأن المشيئة الإلهية أرادت أن تستقرّ حالة النبي ﷺ بزوال ما طرأ عليه من هيبة بسبب أول تجربة للوحي، وأن يسري الوحي في نفسه، ذلك أن الإنسان لا يدرك أهمية أمرٍ في البداية، وإنما تنكشف الحقيقة على قلبه تدريجيا، ومثاله ما حصل بين النبي ﷺ وأهل المدينة إذ قالوا له مرة: يا رسول الله، صحيح أننا قلنا لك عند عقد المعاهدة إننا سندافع عنك إذا هاجمك العدو في المدينة، ولسنا مسؤولين عن نصرتك خارجها. لقد عقدنا معك هذه المعاهدة وقلنا لك ذلك حين لم تكن حقيقة أمرك قد انكشفت علينا، أما الآن فقد اتضح لنا الأمر وأدركنا عظمتك وسموّ مقامك، والآن لا حاجة بنا إلى أي معاهدة، ولسوف نقاتل عن يمينك وعن شمالك، ومن أمامك ومن ورائك، ولن يخلص إليك العدو إلا على جثثنا الهامدة (البخاري، كتاب المغازي). فثبت أن إدراك الأحداث الهامة فورًا أمرٌ صعبٌ جدّا، وإنما تنكشف على المرء حقيقتُها بالتدريج، ويعرف المشيئة الإلهية بعد مرور أيام، ومن أجل ذلك أوقف الله تعالى وحيه عن النبي ﷺ فترة من الزمن بعد إنزال أول وحي عليه، فظل خلالها يتدبَّر فيما نزل عليه من الوحي وأدرك أبعاد المهمة التي كُلّف بها، كما ازداد إيمانًا وعزيمةً وثباتًا. ولما رأى الله تعالى أن الفزع قد زال عنه ﷺ وأنه مستعدّ الآن للعمل، وأن أهمية الوحي قد رسخت في قلبه، أخذ يُنـــزل عليه الوحي تلو الوحي. باختصار، كان لا بد من فترة بين الوحي وبين إعداده ﷺ للوحي، ومن أجل ذلك أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ أولاً سورة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، ثم بعد فترة أنزل سورة المدثر وغيرها التي حملت إليه رسالة وبشارات تتعلق بالمستقبل، وتنبئه أن مهمة عظيمة سوف تُفوَّض إليه، فليستعدّ لها. كان على عقل النبي ﷺ أن يستعدّ لهذه المهمة بمعرفة نوعيتها ونوعية الجهود التي كان عليه أن يبذلها

في سبيلها. من المحال أن يتلقى الوحي ثم يقال له اذهبْ أو قُمْ ونفِّذْ هذه المهمة، بل كان لا بد من فترة إعداد في كل حال.

وهذا ما فعل الله تعالى بالأنبياء السابقين أيضا، حيث أوحى إليهم أولاً، ثم فتر الوحي عنهم لكي تستوعب عقولهم خلال ذلك المهمةَ المناطة بهم وتستعدّ للقيام بها. فنرى مثلاً أن موسى عليه السلام كان في طريقه من فلسطين إلى مصر حين تلقى أول وحي حيث قال الله تعالى له ﴿...يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾(طه:١٢-١٣). ثم فتر الوحي عنه عليه السلام بعض الوقت، واستأنف نزوله عليه بعد وصوله مصر. والوصول من فلسطين إلى مصر لم يكن سهلا في ذلك العصر، إذ كان يستغرق شهرين على الأقل، بل ستة أشهر أحيانا، لأن الناس ما كانوا يسافرون إلا في قوافل لكون الطرق محفوفة بالمخاطر، وكان المرء يجد قافلة بسرعة أحيانا، وفي بعض الأحيان كان ينتظرها ستة أشهر. لقد فتر الوحي عن موسى عليه السلام خلال تلك المدة إعدادًا له لحمل المسؤولية حيث يتدبر في الوحي الذي نزل عليه ويأخذ عدّته نظرًا لأهمية المهمة. ولما رأى الله تعالى أن موسى عليه السلام قد استعد لحملها أنـــزل عليه التوراة. وهذا ما حصل مع رسولنا ﷺ، حيث قال الله تعالى له في أول وحيه عليه ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، ثم فتر عنه الوحي مدة، فظل خلالها يجيل فكره فيه ويتدبره ليستوعب المشيئة الإلهية. فلما نظر إلى حالة الدنيا ودرس أوضاع القوم جيدا وأدرك المفاسد التي كُلّف بإزالتها من ناحية، ومن ناحية أخرى نبّهه "ورقةُ بن نوفل" إلى الوحي الذي نزل على موسى عليه السلام، واستعدّ ﷺ لإصلاح الدنيا، عندها أنزل الله تعالى بشاراتٍ كثيرة لرفع معنوياته، كما أنزل أنباءً إنذارية بحقّ أعدائه. وفي هذه الفترة كان الأعداء قد تكلّموا ضده بأقاويل مختلفة، فطبّقها الناس على هذه السورة ظانين أنها تشير إلى تلك الأقاويل، مع أن هذه السورة لا علاقة لها بتلك الأقاويل. إذا كانت امرأة قد قالت للنبي ﷺ كلامًا فما علاقة كلامها بقوله تعالى ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾؟ ألم يكن الله تعالى ليُطَمْئِنَ رسوله لو لم تكن تكلمت المرأة بهذا الكلام؟ نحن نسلّم جدلاً أن مشركي مكة قالوا هذا الكلام، ونسلّم أيضا

أن إحدى بنات عم النبي ﷺ قالت في تلك الفترة قولاً مماثلاً لما ورد في هذه السورة، ومع ذلك لا يمكن التسليم بأن هذه السورة إنما نزلت بسبب هذه الأحداث، ولولاها لما نزلت هذه السورة.

الحقيقة أن معظم ما يذكره الناس من أسباب نزول آيات القرآن الكريم ليس صحيحًا، ولذلك نجد في أقوالهم اختلافا كما حصل بصدد هذه السورة، حيث يقال أنها نـــزلت بسبب ما قالته إحدى جارات النبي ﷺ من قول سخيف، ويقال أيضا أنها نزلت لأن الكفار كانوا يتحدثون بكثرة عن انقطاع الوحي، ويقال أيضًا أنها نـــزلت بسبب ما قالته إحدى بنات عم الرسول ﷺ. وهناك آيات قرآنية كثيرة يقول عنها صحابي إنها نزلت في حقّي، بينما يقول غيره إنها نزلت في حقي، مثلما أخطـــأ كثير من الأحمديـــين في فهم وحي المسيح الموعود عليه السلام الذي ورد فيـــه: A word and two girls، فظنوا أنه يتعلق بهم.

يرى المستشرق السير وليام موير أن هذه السورة نزلت بعد سورة البلد، بينما يرى المستشرق نولدكه أنها نزلت بعد سورة الشرح (تفسير القرآن لـــ"ويري").

وعندي أن محتوى هذه السورة يؤكد أنها من السور العديدة التي نزلت في البداية المبكرة للبعثة، إذ يأمر الله تعالى فيها رسوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾، بينما تخبر السور السابقة أن المسلمين كانوا يعملون بهذا التعليم سلفًا، فلا بأس لو قلنا دعمًا لبعض الروايات أنه ما دامت هذه السورة تأمر ببعض الأحكام، والعملُ يتم بعد الحكم دائما، فثبت بهذه الشهادة الداخلية أن هذه السورة أسبق نزولاً من السور التي تذكر أن المسلمين يعملون بهذه التعاليم.

بيد أن من المحتمل أيضًا أن يكون المراد أن عليك بكذا وكذا من الأعمال شكرًا لله تعالى عند تحقُّق الوعود المذكورة في بداية هذه السورة ونزولِ النعم التي أنبأ الله بها فيها، وفي هذه الحالة لا يكون المراد أن الأحكام التي أُمر بالعمل بها قد نـــزلت أوّل مرة في هذه السورة، وإنما تكون قد نزلت من قبل ولكن الله تعالى أمر رسوله بها ثانيةً شكرًا على نعمه. فمثلاً ورد في القرآن الكريم أن الله تعالى أمر زكريا عليه السلام بالصيام (مريم:١١)، ولكن هذا لا يعني أن الصيام فُرض على تلك الأُمّة في تلك

المناسبة لا قبلها، بل المراد أن الصيام كان فرضًا عليهم من قبل، غير أن الله تعالى حثّ زكريا على الصيام بتلك المناسبة أيضًا. إذن، فليس ضروريا أن نستنتج من هذه الأحكام بشكل قاطع بأنه ما دامت هذه السورة تشتمل على بعض الأحكام، فهي أسبق نزولا من السور التي ذُكر فيها أن المسلمين يعملون بهذه الأحكام لأن الحكم يكون أولاً والعمل به يتم بعده، بل قد يكون المراد أن الله تعالى قد أمر في هذه السورة بأن هذه الأحكام التي كنتم تعملون بها من قبل ينبغي أن تعملوا بها أكثر عند تحقُّق هذه الوعود شكرًا عليها.

الترتيب والترابط:

هذه السورة والسور السابقة متحدة في الموضوع حيث تتحدث السور السابقة عن مساوئ أهل مكة بحق اليتامى والمساكين، وهذه أيضًا تتحدث عن اليتامى والمساكين حيث تحثّ على حفظ أموالهم وإنفاقها بطريق سليم، والفرق الوحيد هو أن سورة الضحى تأمر الرسول ﷺ والمؤمنين فقط بفعل الحسنات، وأما السور السابقة فهي تقارن بين المسلمين والكافرين فيما يتعلق بهذه الحسنات وتبين أن المسلمين يعملون بها، ولكن الكافرين لا يعملون بها.

والعلاقة الثانية بين هذه السورة وما قبلها من السور أن السور السابقة تتحدث عن سلوك العبد الصالح التقي تجاه الله تعالى، أما هذه السورة فتتحدث عن سلوك الله تعالى مع هذا العبد، فالسورة السابقة (الليل) مثلاً تركّز على أن هذا العبد ينفق ماله في سبيل الله، حيث قال الله تعالى ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾(الليل:١٨-٢٢)، أما هذه السورة فتحدث الله فيها حول معاملته مع عبده الصالح التقي، أي النفس الكاملة. إذن، فهذه السورة تتمّةٌ لمضمون السور السابقة، وبالأخص سورة الليل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

وَالضُّحَىٰ ﴿٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٣﴾

مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

الضُّحى: بَعْدَ الضَحْوة، أي حين تشرق الشمس حتى ما قبل زوالها، لكن البعض يرى أن هذا يسمى ضحاء لأن الضحى لا يكون ما قبل زوال الشمس.

سَجَى: أي حين يكتمل ظلام الليل، حيث ورد في المفردات: "﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ أي سكن".

ودَّعك: ودّع فلانٌ فلانًا: هجَره. (الأقرب)

قَلى: قَلى فلانا قِلًى وقَلاءً: أبغضَه وكَرِهَه غايةَ الكراهة فتركه. وقلا الإبلَ: طرَدها وساقها (الأقرب). الأول يائيٌّ والثاني واويّ.

التفسير: هناك ضحًى خاص وليل خاص في حياة الرسول ﷺ، والضحى الخاص هو ذلك الوقت الذي دخل فيه النبي ﷺ مكة فاتحا، والليل الخاص هو تلك الليلة التي خرج فيها من مكة مهاجرا. فقوله تعالى ﴿والضحى﴾ إشارةٌ إلى ذلك النهار الخاص، وقوله ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ إشارةٌ إلى ذلك الليل الخاص. والحق أننا لو سئلنا عن خلاصة حياة النبي ﷺ لذكرنا هاتين الواقعتين. لقد اضطره الأعداء لترك مكة، ولكن الله تعالى أهلكهم بآياته القاهرة، وأدخله مكة منتصرا. وإلى هاتين الواقعتين قد أشار الله تعالى هنا وقال: يا محمد، نقدّم ضحًى خاصًا وليلاً خاصًا يغطّي كل ما حوله شهادةً على صدقك أو على صدق الموضوع الذي سنتناوله.

قد يعترض البعض على هذا المعنى ويقول: إن الضحى مقدَّمٌ هنا على الليل، والهجرة كانتْ قبل فتح مكة؟

فليكن معلوما أن الله تعالى قد أمر نبيه ﷺ في مكان آخر من القرآن الكريم: ﴿قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ واجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطانًا نَصيرا * وقل جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء:٨١-٨٢)، وهي نبوءة واضحة عن فتح مكة، فعند الفتح كان النبي ﷺ يكسر الأصنام وهو يردد: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، وهكذا فإن الرسول ﷺ قد أوضح بعمله أنه قد تحقق اليوم النبأ المذكور في قوله: ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ واجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطانًا نَصيرا﴾. فترى هنا أن قوله تعالى ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ الذي هو نبأٌ عن دخول النبي ﷺ مكة منتصرا مذكورٌ قبل قوله تعالى ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ الذي هو نبأ عن هجرته ﷺ، مع أن الهجرة سبقت الفتح.

وهناك حكمة بالغة في اتّباع هذا الأسلوب وقد ذكرتُها من قبل مرارًا، وهي أنّ من سنة الله تعالى أنه عند الحديث مع أحبّائه يبلّغهم الخبر السارّ قبل الخبر المحزن، ليخفف الخبر السار من وطأة الحزن، وهكذا يحقق الهدفين، ويوصل الخبريْن، ويخفّف الإحساس بالمعاناة. وهذا ما يفعله كل رسول ذكي، حيث يخبر بالعاقبة الحسنى أولا، ثم يذكر خبر المعاناة والحزن، فإذا لقي بعضَ أقارب مريض مثلاً وسُئل عن حاله قال: الحمد لله، إنه بخير الآن، وكان قد مرض بشدة قبل أيام، وهكذا يبلّغه الخبر السار عن قريبه، كما يخبره بشدة مرضه بحيث يئس الأطباء منه. فبدلاً من أن يقول إن المرض كاد يهلكه يقول أولاً: الحمد لله أنه بخير الآن، ثم يبلغ الخبر المحزن. ولكنا رأينا آخرين يفعلون العكس تماما، فإنهم بسبب حمقهم يذكرون الأمر المحزن أولاً، ويُخْفون الخبر السار. فمثلاً إذا قيل لبعضهم: هل جئت بخير؟ فيحكي لك الحكاية المحزنة أولاً لساعة أو أكثر ثم يخبر الخبر السار وبدونها لن يخبرك الخبر السار. وإذا عهدت إلى بعضهم مهمة مثلاً، فرجع بعد إنجازها، فيأخذ في سرد حكايات طويلة لك أولاً، ثم في الأخير يقول الحمد لله قد أنجزتُ المهمة. فبدلاً من أن يقول في البداية: الحمد لله قد أنجزتُها، يذكر ما عانى من عراقيل ومشاكل، ثم بعد ساعة أو أكثر يقول: الحمد لله قد نجحت. فأصحاب هذه الطبائع الغريبة لا

يجدون متعة في الحديث ما لم يخوّفوا الآخرين تخويفا، ولكن من سنة الله أن يَسُرّ عبده بالخبر السار أولاً، ويبشره بالعاقبة الحسنة، ثم يخبره أنه سيواجه بعض المحن أيضًا، لأن الله تعالى لا يريد إيذاء قلب عبده بالحديث عن أمر محزن عاقبتُه خير. وهذا ما فعل الله تعالى في قوله ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾، حيث ذكَر نبأ فتح مكة أولاً ثم ذكر نبأ الهجرة. فلما علم المسلمون أنهم سوف يعودون إلى مكة فاتحين في نهاية المطاف اطمأنوا وقالوا: لا بأس لو كانت قبلها هجرة. ولهذا السبب نفسه قد ذكر الله تعالى هنا الضحى أولا ثم قال ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾.

يقول الله تعالى إن هذين الحادثين سوف يدلان على أن ربك ما هجرك وما أبغضك. وحيث إن الغاية من تقديم الضحى على الليل كانت قد تحققت –وهي أن لا يصاب النبي ﷺ بالصدمة بنبأ هجرته– فلذلك غيَّر الله تعالى هذا الترتيب بعد ذلك متّبعًا الترتيب الطبيعي فقال: ﴿ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى﴾، فقوله تعالى ﴿ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ جواب لقوله ﴿واللَّيْلِ إِذا سَجَى﴾، وقوله تعالى ﴿وَمَا قَلَى﴾ جواب لقوله ﴿وَالضُّحَى﴾، إذ المعنى: يا محمد، عندما يقع الحادث الأول المشار إليه في قولنا ﴿وَاللَّيْلِ إِذا سَجَى﴾ وتضطر للهجرة من مكة، فلن يخذلك ربك عندها، ولذلك نجد أن أبا بكر رضي الله عنه لما خاف في غار ثور وقال: يا رسول الله، قد اقترب العدو منا بحيث لو نظر في الغار قليلا لرآنا، لم يلبث النبي ﷺ أن قال له: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ (مجمع الزوائد: كتاب المغازي، باب الهجرة). السؤال الذي يفرض نفسه هنا: متى كان الله تعالى قد وعد رسوله أنه لن يخذله في ساعة الهجرة حتى قال ﷺ لأبي بكر هذا الكلام بهذه القطعية والجزم؟ الجواب: هذا الوعد مذكور هنا في سورة الضحى في قوله تعالى ﴿واللَّيْلِ إِذا سَجَى﴾.. أي لن يتركك ربك ولن يخذلك عند وقوع هذا الحادث. هذا الوعد الرباني هو الذي جعل النبي ﷺ يقول لأبي بكر بكل شجاعة: لا تحزن، إن الله معنا.. أي يا أبا بكر، إن الله معنا وهو الذي قد وعدنا بالنصرة في سورة الضحى، فما مبرر الحزن؟ الحق أن مَعيّةَ الله هي التي جعلت النبيَّ ﷺ يخرج بكل سكينة من بين الأعداء المحاصرين لبيته حصارًا

شديدًا، إذ ظنوا أن هذا الذي يمرّ من أمامهم ليس بمحمد، بل غيره. وأتذكرُ أنني قرأتُ في التاريخ -ولكن لا أتذكر المصدر الآن- أن أحد المحاصِرين قال فيما بعد لقد كنتُ رأيتُ محمدا يخرج من بيته ويمرّ من أمامنا، ولكني لم أعرف أنه محمد نفسه بل ظننتُه شخصًا آخر. إذن، ببركة معية الله تعالى خرج النبي ﷺ من بين الأعداء وهم ينظرون ومع ذلك لم يستطيعوا القبض عليه.

ثم إن من بركة معية الله تعالى للنبي ﷺ أنه حين اختفى في غار ثور جاء الدليل بالكافرين إلى فم الغار، وقال إما أن محمدًا مختفٍ فيه أو صعد في السماء، ولكنهم لم يتقدموا لينظروا في الغار، بل ضحكوا على الدليل وقالوا إنك تهذي، إذ كيف يمكن أن يختفي أحد في هذا الغار أو يصعد في السماء؟

فهذه الأحداث كلها دليلٌ ساطعٌ على معية الله لرسوله ﷺ بحيث لا يسع أعدى الأعداء إنكاره.

والحادث الآخر المشار إليه في قوله تعالى ﴿والضحى﴾ هو فتح مكة، وقد قال الله مقابله ﴿وَما قَلَى﴾، ذلك أن أهل مكة كانوا يؤمنون أن من هاجمها نزل عليه غضب الله ودُمِّرَ، إذ كانوا قد رأوا بأم أعينهم ما حلّ بأبرهة عند هجومه عليها بجنوده، إذ صار غرضًا لغضب الله وهلك، ولكن الله تعالى أخبر رسولَه أن قضيتك مختلفة فلن يحدث هذا معك، بل سيشهد وقت الضحى أن الله لم يغضب عليك، وإلا لحلّ بك عذابه. إن عدم نزول عذابه عليك، بل نصرته وتأييده لك وإزالة كل عائق من طريقك، ثم دخولك بجنودك مرفرفًا رايات النصر.. كل ذلك يدل على أن المشيئة الإلهية كانت تريد أن تحلّ بالبلد الحرام وتفتحه.

إذن، لقد أثبت الحادث المشار إليه في قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ أن الله تعالى لم يخذل محمدا ﷺ، كما أكد الحادث المشار إليه في قوله تعالى ﴿والضحى﴾ أن الله تعالى لم يغضب على محمد ﷺ بفعل من أفعاله ولو كان في الظاهر خلافا لقراره ﷻ الذي كان ساري المفعول منذ قرون، فمِن سنة الله المستمرة منذ أن بنى إبراهيم عليه السلام الكعبة أن يُهلِك كل من يحاول الهجوم على مكة لأن الهجوم عليها حرام، ولكن ما نرى هو أن محمدا رسول الله ﷺ يذهب لفتح مكة ويدخلها في

وضح النهار لا بالليل على مرأى من العالم بل على مرأى من الله وملائكته، ومع ذلك لا ينـــزل عليه أي عذاب من الله تعالى ولا يهلك جنوده، بل كل ما حصل هو أن الله تعالى جعل أعناق كفار مكة تعنو لمحمد، وجعلهم في قبضة محمد ﷺ ليفعل بهم ما يشاء. وكل هذا دليل ساطع على أن دخول النبي ﷺ مكة فاتحًا كان مشيئة الله تعالى بعينها، وإلا فلِمَ لم يعامله الله تعالى عند هجومه على مكة كما عامل كلَّ مَن حاول الهجوم عليها منذ خمسة وعشرين قرنًا؟ ومن أجل ذلك نجد الله تعالى يقول هنا لرسوله ﷺ: ستكون هجرتك من مكة بالليل دليلاً على أن الله تعالى لم يخذلك، وإن دخولك مكة في وضح النهار منتصرًا سيكون برهانًا على أن الله تعالى لم يبغضك قط.

والمعنى الثاني لهذه الآيات هو أن الضحى يدل على الضوء، والسجى يدل على الظلام، ويمرّ الإنسان بهاتين الحالتين؛ عسر ويسر، وترح وفرح، فحينًا يحقق النجاح والتقدم، وآخَرَ يرى الفشل والمعاناة، وتارة يأتي عليه وقت الترقّي، وأخرى وقت الزوال، ومرة يرى الفرحة وأخرى الحزن، وحينًا يُرزَق الأولاد وآخَرَ يموت بعض أولاده، وطورًا يمرض وآخر يشفى، ومرة ينتصر على العدو، وأخرى يُهزم هزيمة عابرة. فمثلاً مِن إلهامات المسيح الموعود عليه السلام:

دشمن کا بھی ایک وار نکلا (التذكرة ص ٥٢٤)

أي أن العدو أيضا نجح في هجومه. لقد ذكر القرآن في مواضع عديدة أن مِن الناس مَن إذا أصابته مصيبة أو أذى أصيب باليأس والقنوط وأخذ في البكاء والعويل، وإذا أحرز رقيًّا ونال نصيبًا من بركات الله تعالى أخذه الكبر وقال ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾(القصص:٧٩).. أي أن ما حقّقتُه إنما حقّقتُه بقوتي وبكفاءاتي، وقد تحقق لي هذا بعد أن فعلتُ كذا وكذا. وكأن الله تعالى يقول في الآية قيد التفسير أن العدو إذا أصابته ضراء قالَ ﴿رَبِّي أَهانَنِ﴾(الفجر:١٧)، وإذا أصابته سراء قال ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾(الفجر:١٦)، ولكنك يا محمد لست هكذا، بل نقول: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ

وَمَا قَلَى﴾.. أي نقدّم حالتيك أمام العدو دليلاً على صدقك، فقد بلغتْ نفسُك الكاملة من السمو بحيث لن تنسى ربك أبدًا إذا أصابتك المحن، بل ستذكره دائمًا ولن يقترب منك اليأس مطلقًا؛ وعندما تصيبك السراء فلن يقترب منك الكبرياء. لن تقول عند نزول النعم إنما أوتيته بقوتي فتُغضبَ ربك، بل ستعلن: هذا من فضل ربي، وعند حلول المصائب لن تتّهم ربك، بل ستنيب إلى كنفه دائما، فسيأتي الله تعالى لعونك ويقف بجنبك دائما، ولن يخذلك أبدًا.

ونستطيع أن نرى الأمرين في حياة النبي ﷺ في أجلى صورة. لقد كان ليلاً حين اضطر النبي ﷺ لأن يهاجر من مكة ويختفي في غار ثور. وكان ليلاً أيضا حين دعاه عمُّه أبو طالب يومًا وقال: يا ابن أخي، لقد عيل صبرُ قومك؛ فقد جاءني كبار رؤسائهم مجتمعين وقالوا لي: يا أبا طالب، إننا لا نتعرض لابن أخيك بسببك أنت فأنت زعيم البلد، ولكن إلام نسكت على هذا الظلم؟ إننا لا نطالب ابن أخيك أن يعبد أصنامنا، إنما نريد أن لا يذكرها بسوء، فإذا لم يرضَ هو بهذا الطلب البسيط و لم ينته عن ذكر آلهتنا بسوء بعد ذلك، فسوف نخرج عن سيادتك، ولن نحترمك. والواقع أن التخلي عن السيادة أصعب شيء وأكبر محنة لصاحبها. إنه لا يطيق أن يكون اليوم جالسًا بعزة أو جلال ويأتيه الناس يسلّمون عليه قائلين: أيها السيد، أمرُك على الرأس والعين، وفي اليوم التالي يحملون عليه العصي ويطالبونه بالخروج من بلدهم. لم يكن أبو طالب مسلمًا، فشقّتْ عليه هذه المحنة، فدعا النبي ﷺ وقال له وقد اغرورقت عيناه: يا ابن أخي، لقد ساعدتُك قدر المستطاع، ولكن قد جاءني اليوم كبار قومك وأنذروني قائلين: إما أن تكون مع ابن أخيك أو معنا. يا ابن أخي، إنهم لا يريدون منك أن تعبد أصنامهم، بل كل ما يريدونه أن لا تذكر آلهتهم بسوء. أفلا يمكنك أن تلين في موقفك قليلا، لأنهم قد هددوني اليوم قائلين: إذا وقفتَ بجنب ابن أخيك بعد ذلك فسوف نعزلك من السيادة. فلما سمع النبي ﷺ قوله لم يلبث أن قال: يا عمِّ، لا شك أنك قد نصرتني كثيرا، ولكن الأمر يخصّ الدين، فوالله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أغير موقفي فلن أغيّره. يا عم، لم يبق أمامك إلا خيار واحد الآن، فإنّ قومك إذا كانوا

سيتخلون عنك من أجلي، فأرجوك أن تتخلّى عني من أجلهم. (السيرة لابن هشام، مباداةُ النبي ﷺ قومَه)

لا شك أن هذا الحادث كان بمنـــزلة ﴿اللَّيْل إذا سَجَى﴾ بالنسبة للنبي ﷺ. لم يكن ﷺ يملك قوة، بل كانت قوته كلها تكمن في أبي طالب، ولكن صاحب القوة هذا يصاب بالخوف، وأما الذي لا يملك قوةً فيقول: ما دام الآخرون قد تخلوا عني، فتخلَّ أنت أيضا عني، فإني لن أغيّر من عقائدي شيئا. كان ليلاً، وليلاً مخيفا جدا، ولا يصمد في مثل هذا الموقف إلا المؤيَّدون من الله تعالى، ولكن النبي ﷺ أكّد صدق قوله تعالى ﴿ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلَى﴾ في هذه الليلة الحالكة المخوفة، إذ لم يرتكب ﷺ فعلاً يخذله الله تعالى بسببه، و لم يتصرف تصرفًا يجلب عليه سخط الله تعالى، إنما فعل ما جعل الله تعالى يقترب منه أكثر ويفرح منه أكثر. ألا يمكنكم أن تدركوا أن الله تعالى لما سمعه ﷺ على عرشه وهو يقول لعمه: يمكنك أن تتخلى عني، ولكني لن أتخلى عن الله تعالى، فلا بد أن الله تعالى يكون قد مال عليه كالعاشق الملهوف قائلا: يمكن أن تخذلك الدنيا، ولكني لن أخذلك. لا شك أن الله تعالى ليس ماديا، وعلاقته بالعباد ليست مادية، ولكن لو افترضنا –من أجل تصور ذلك المشهد– أن حب الله تعالى شيء مادي وكراهيته شيء مادي، فلا شك أن الله تعالى الذي كان واقفا على بُعد خطوتين من النبي ﷺ يكون قد جاء ووقف بجنبه ﷺ لدى سماع جوابه لعمه، وازداد رضاه عنه ﷺ أضعافا كثيرة. من أجل ذلك يقول الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.. أي يا محمد، إن كل ليلة تأتي في حياتك ستؤكد أن ربك لم يخذلك و لم يبغضك، بل إنه لا يزال يتقرب إليك كل لحظة.

إن شجاعًا مثل أبي بكر ﷺ يصاب في غار ثور بالقلق.. ليس على نفسه، بل على محمد ﷺ. ولكن أليس غريبًا أن الذي لم تنـــزل عليه البليّة مباشرةً يصاب بالحزن والقلق، مع أنه كان معززًا بين أهل مكة ولو قبضوا عليه عندها لاكتفوا بتوبيخه وتركوه قائلين: لماذا جئت معه؟ أما الذي نزلت عليه البلية مباشرة فيقول

لهذا بكل سكينة ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾. لا شك أن النبي ﷺ لما قال لأبي بكر ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ فلا بد أن يكون قد ازداد بالله رضا وقربا وزلفى.

ثم كان ليلاً حالكًا حين أُصيب النبي ﷺ بالجراح في غزوة أحد، وتضافرت الأحداث التي بدَّلت انتصار المسلمين هزيمةً. كان النبي ﷺ اختار بعضَ رُماته وعيّنهم لحراسة ممر هنالك قائلا: لا تبرحوا مكانكم هذا مهما كانت نتيجة المعركة (الفصول في سيرة الرسول لابن كثير: كتاب المغازي). وعندما بدأت المعركة وتشتّتَ جنود الكافرين ظن هؤلاء المسلمون نتيجة اجتهاد خاطئ منهم أن لا فائدة الآن في بقائهم في مكانهم، وإنما عليهم أن ينـــزلوا ويشتركوا في القتال ولو قليلا. فقال لهم أميرهم: لقد أمرنا الرسول ﷺ بالبقاء في مكاننا على كل حال، ولكنهم قالوا له: لم يقصد الرسول ﷺ أن لا نتركه حتى في حالة الفتح، وإنما قصد ألا نتركه ما دامت المعركة مستمرة، وما دام قد حالفَنا الفتح وفرّ العدوّ فعلينا أن نشترك في هذا الجهاد من أجل الثواب. وهكذا تركوا حراسة الممر. ولم يكن خالد بن الوليد قد أسلم بعد. لقد كان فتًى حادّ البصر، وفيما هو يفرّ مع جنده، لاحظَ أن الممر مكشوف، فرجع بأصحابه وشنّ الهجوم على المسلمين من ورائهم عبر الممر. لم يكن المسلمون مستعدين لمواجهة هذا الهجوم المباغت، فَعَمَّتْهم الفوضى وتبعثروا، فلم يستطيعوا الوقوف في وجه العدو، واستولى الكافرون على أرض المعركة. وفرّ معظم الصحابة في هذه الفوضى والاضطراب إلى المدينة حتى لم يبقَ حول الرسول ﷺ إلا اثنا عشر صحابيا، بل لم يبق حوله منهم إلا ثلاثة في وقت من الأوقات. فأخذ العدو يصوّب سهامه إلى النبي ﷺ خاصة، ولكنه ﷺ ظلّ صامدًا في وجه العدو ثابتًا في مكانه في هذا الظرف العصيب، ولم يتزحزح من مكانه. فحمل عليه العدو في الأخير حملةَ رجل واحد، ودفعوه وأصحابه، فسقط النبي ﷺ في حفرة جريحًا مغشيًا عليه، وسقط عليه بعض أصحابه الذين كانوا يحرسونه شهداءَ، واختفى ﷺ تحت جثثهم وأشيع بين القوم أنه ﷺ قد استُشهد. فقد زاد هذا الخبر الصحابة حزنًا وقصم ظهورهم كليةً. أما الصحابة الذين كانوا حوله فأخرجوه من الحفرة من تحت الجثث والتفوا حوله يحرسونه. وفيما كان

العدو في ذروة نشوة انتصاره والجيشُ المسلم في ضعفه وتشتته، والرسولُ ﷺ بين حفنة من صحابته إذ فر باقي المسلمين وخلا ميدان المعركة، فنادى أبو سفيان وقال: هل فيكم محمد؟ فأراد الصحابة الردَّ عليه، ولكن النبي ﷺ نهاهم عن ذلك. فقال أبو سفيان: هل فيكم ابن أبي قحافة، أي أبو بكر؟ فقال له النبي ﷺ: لا تُجِبْ. ثم قال أبو سفيان: هل فيكم عمر؟ فنهاه النبي ﷺ عن الإجابة. فقال أبو سفيان فرحًا: اعْلُ هُبل، اعْلُ هُبل.. أي العظمة لصنمنا هُبل، العظمة لصنمنا هبل، إذ قد أهلك هؤلاء القومَ أخيرا. فلم يطق رسول الله ﷺ سماع كلامه. ومع أن العدو كان قد ألحق بأصحابه ﷺ خسائر فادحة، ومع أن بعضهم قد فروا من أرض المعركة حتى وصل بعضهم إلى المدينة، وكان الآخرون مشتتين ولم يكن حول الرسول ﷺ إلا قلة يُعَدّون على الأصابع، إلا أنه ﷺ لم يتمالك نفسه وقال لصحابته: لماذا أنتم صامتون؟ ولِمَ لا تردّون عليه؟ فقالوا: يا رسول الله، بماذا نردّ عليه؟ قال: اهتِفوا: اللهُ أعلى وأجلّ، اللهُ أعلى وأجلّ. أي ما قيمة إلهكم هُبل؟ إنما الله هو الأعلى والأجلّ. (البخاري: كتاب المغازي، والفصول في سيرة الرسول: كتاب المغازي).

لا جرم أن قوله ﷺ هذا جعَله كمن يطلب الموت. فقد كان أمامه ﷺ جيش العدو المكوَّن مِن ألفي جندي، وكانوا منتشين بنشوة الانتصار، وكان أغلبية المسلمين قد فروا من أرض المعركة، وكان العدو يدعي أنه قد قتل محمدا وأكابر صحابته. كم كانت حالكةً تلك الليلة التي أتت على النبي ﷺ يومها! فرغم أنه لم يكن حول النبي ﷺ في تلك الليلة الحالكة إلا حفنة من صحابته، وكان هناك خطر كبير أن يهاجمه العدو ثانية، ورغم أنه كان يمنع صحابته من الجواب من قبل في كل مرة، إلا أنه لما سمع مَدْحَ هُبل قال ﷺ مِن فورة حماسه: لماذا لا تجيبون وتقولون: اللهُ أعلى وأجلّ، الله أعلى وأجلّ؟ فردَّ الصحابة بهذا الجواب على الكفار. وهكذا قال النبي ﷺ للعدو وتحداه قائلا: ها أنا موجود هنا لقتالك. لقد كان هذا العدو هزم ألف جندي، ولكن عندما سمع منه النبي ﷺ هذه الكلمة الوثنية لم يُطِقْها، فمع أنه ﷺ كان منهكا بالجروح ولم يكن حوله إلا حفنة من أصحابه وكان العدو يستطيع إصابته

بكل سهولة، ولكنه ﷺ لم يبال بهذا الموقف الحرج، بل رفع اسم الله تعالى عندها أيضا.

لا شك أنه كان ليلاً حالكًا أتى عليه، ولكن ماذا كانت النتيجة؟ هي: ﴿ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلَى﴾. لقد ازداد ﷺ تعلقًا وقربًا من الله تعالى، ولم يتصرف تصرفًا يُثير سخط الله عليه.

وكان ليلاً حالكاً آخر حين جاء العدو بعُدته وعتاده للقضاء على المسلمين عند غزوة الخندق، والغريب أنه مني بالهزيمة النكراء في وقت كان ليلا حالكا بالفعل. كان المسلمون يائسين في الظاهر، إذ كان العدو محاصِرًا لهم منذ خمسة عشر يوما، وكانت مؤَن المسلمين قد نفدت ولم يكن هناك أملٌ للمدد من الخارج، فكانوا في قلق شديد على مصيرهم. لقد كانوا قليلي الأسباب لدرجة أنهم قالوا: لم يكن عندنا ثياب نتقي بها قرّ البرد حتى فقدت أيدينا وأرجلنا الإحساس من شدة البرد. وفيما هم في ذلك إذ نادى النبي ﷺ في منتصف الليل: هل هناك أحد؟ فقال صحابي: لبيك يا رسول الله! فقال ﷺ: لا، أريد أحدًا سواك؟ فلم يسمع ﷺ صوتًا من أحد فأعاد قوله: هل هناك أحد؟ قال ذلك الصحابي: لبيك يا رسول الله. فقال ﷺ: لا، أريد غيرك. ثم نادى: هل هناك أحد؟ فلم يجبه غير هذا الصحابي! فضحك النبي ﷺ وقال له: اخرجْ وانظرْ، فإن الله تعالى قد أخبرني أن العدو قد هرب. (السيرة لابن هشام، غزوة الخندق)

فترى أن المسلمين ينامون تلك الليلة يائسين من أي مدد، ولكن الله تعالى يخبر رسوله قبل أن يطلع الصبح، بل في منتصف تلك الليلة المظلمة أن العدو قد فرّ. مما يعني أنه بينما كان الناس يبيتون قلقين خائفين كان النبي ﷺ يخرّ أمام ربّه ويدعوه ويبتهل له. ويقول ذلك الصحابي أني لما خرجتُ وجدتُ الأرض خاليةً لا توجد بها خيام الأعداء.

ويقول صحابي آخر: لما نادى النبي ﷺ: هل هناك أحد؟ كنتُ مستيقظا وأسمع نداءه ولكني لم أستطع أن أُجيبه من شدة البرد الذي جمّد لساني، دَعْك من يديّ وأرجلي، إذ كان الثلج قد سقط ولم تكن عندنا ثياب كافية (المرجع السابق).

لقد أتت على النبي ﷺ هذه الساعات العصيبة من المحن والصعاب والآلام، ولكن الله تعالى قد أثبت في كل ليلة من هذه الليالي أنه معه ﷺ.

ثم جاءت على النبي ﷺ أوقات الضحى، حيث انتصر بعد فتح مكة على العرب كلهم، وحقّق فتحًا بعد فتح، لكن ماذا أكدت نجاحاته وانتصاراته؟ لقد أكّدتْ صدق قول الله تعالى: ﴿ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وما قَلى﴾. إن الناس يصابون بالكبر عند النجاح، ويصابون بنشوة الغرور عند الغلبة، ولكن يمكنك أن تقدّر حالة قلب النبي ﷺ عند فتح مكة. عندما كان الجيش المسلم يتقدم نحو مكة كان الصحابةُ، لا سيّما الأنصار، متحمسين جدًّا ضد أهلها. لا شك أن قلوب المهاجرين ما كانت خالية من هذا الإحساس، ولكن الأنصار كانوا أشدَّ منهم حماسًا بما سمعوا من حكايات الاضطهاد الذي كان أهل مكة يصبّونه على النبي ﷺ وأصحابه. وبينما هم في فورة الحماس هذه رأى أحد القادة الأنصاريين أبا سفيان، فقال له: اليوم سوف ننتقم منكم على ما فعلتم برسول الله وأصحابه. ولو كان هناك غيرُ النبي ﷺ لمنح هذا الأنصاريَّ الوسام فرحًا بقوله قائلاً: نعم، هكذا يكون الوفاء، ولكن الرسول ﷺ دعا هذا الأنصاري وقال له: إن مكة مقام مقدَّس عند الله تعالى، ويجب أن لا ننسى قداستها وقت هذا الفرح والانتصار الذي كتب الله لنا. لقد أخطأتَ خطأ كبيرا بقولك هذا، لذلك فإني أعزلك من منصبك. (السيرة لابن هشام)

فترى أن هذه كانت الفرصةَ الوحيدة والأُولى التي سنحت للنبي ﷺ، حيث وقعتْ في قبضته رقابُ الأعداء الذين ظلّوا يصبّون عليه أبشعَ المظالم زمنًا طويلا. وكان من الوارد أن يقول النبي ﷺ في نفسه: اليوم سأنتقم من هؤلاء انتقاما شديدا، أو تجري كلمةٌ مماثلة على لسانه، أو يعبّر عن إعجابه بمن يقولها أو يرضى بها في قلبه على الأقل فيقول في نفسه: ما أشدَّ أصحابي وفاءً لي، وما أشدَّهم إحساسًا بالاضطهاد الذي كنت أتعرض له! وما أشدَّهم حماسًا للانتقام من أجلي حتى أصبح هذا الحماس باديًا من تصرفاتهم. ولكن لم يحدث من هذا القبيل شيء أبدا، وإنما عزل الرسول ﷺ هذا القائد الأنصاري قائلا: هذه المناسبة لا تبيح لنا الكبرياء.

ثم لما دخل النبي ﷺ مكة منتصرًا كان ذلك وقت الضحى، حيث قال: يا أولادَ عتبة وشيبة ووليد، ويا إخوتهم وأعمامَهم وأقاربهم، لقد أخرجتموني من مكة وحيدًا طريدا، لقد أصبحتُ غالبًا عليكم، فماذا تتوقعون مني؟ فقالوا: نتوقع منك ما أنت أهلٌ به، ونرجو أنك ستعاملنا كمعاملة يوسف لإخوته. فقال النبي ﷺ: نعم، لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء. (السيرة الحلبية: فتح مكة)

كان هذا ضحى ثانيًا أتى على النبي ﷺ، لكن لم يُصِبْه فيه كبر ولا غرور. كانت القبائل والوفود يأتون ويدخلون في طاعته وولائه، ولكنه لم يتصرف معهم بما يدل على استعلاء أو كبرياء.

والمعنى الثالث لقوله تعالى ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ هو: أن مِن الناس مَن إذا طلع عليهم النهار أنفدوه في اللعب واللهو والقمار والخمر وغيرها من اللغو والمنكرات، وإذا حلّ بهم الليل أنفدوه في الرقص والغناء والنوم، ولكن الله تعالى يقول لرسوله: سوف تتميز أيامك ولياليك عن أيام هؤلاء القوم ولياليهم حتى إن أصحابك سوف يحتجون بنهارك على صدقك قائلين: هل نهاركم كنهار محمد؟ فكيف يمكن أن يخذل الله مَن يقضي نهاره على هذا النحو أو كيف يمكن أن يغضب عليه؟ كما تقدِّم لياليك أمام كل إنسان وتقول له: انظر إلى لياليّ وأخبر هل يمكن أن يخذل الله تعالى مَن يقضي لياليه بهذا الشكل؟ إذن، فقول الله تعالى لرسوله ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ يعني أننا سنجعل نهارك يشهد على أن الله تعالى لم يبغضك ويشهد ليلك على أن الله تعالى لم يخذلك. والحق أن هذا المفهوم يماثل الدعوى التي ذكرها الله تعالى في قوله على لسان النبي ﷺ: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(يونس:١٧).. أي لقد قضيتُ بينكم عمرًا طويلا، فهل بوسعكم أن تصموني بمعصية واحدة في هذه السنوات؟ كلا، لن تستطيعوا جميعا أن تثبتوا وصمةً واحدة في أربعين سنة قضيتُها بينكم. ولكن الواقع أن هذه الدعوى تتعلق بالحياة السابقة للبعثة، أما قوله تعالى ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ ففيه الدعوى عن نزاهة

حياته ﷺ بعد البعثة، فكأنما يقول: إن كلَّ نهارٍ وكلَّ ليلةٍ من حياتي سوف ينقضي أمامكم، وسيكون دليلا على أنه ما ودّعني ربي وما قلاني.

إذن فهذا دليل آخر على صدق النبي ﷺ علّمه الله إياه، فكأنه تعالى يقول: إنني أتنبأ أمام العالم أن كل نهار لك سينقضي في ابتغاء مرضاتي، وكل ليلة لك ستكون مصبغة بصبغة رضواني. لقد تحديتُ القوم من قبل عن حياتك السابقة، وها أنا أتحداهم ثانية عن حياتك القادمة. قد يقولون عن حياتك السابقة أننا لم نتدبرها ولم نفحصها جيدا، وقد تكون فيها وصمة عار، ودحضًا لهذا العذر نقدّم أمامهم حياتك الباقية؛ فليتفحصوا حياتك بعد الدعوى ليروا ما إذا كنتَ تنفق كل ساعة من كل ليلة ونهار من حياتك لمصلحتك وراحتك، أم لمصلحة الإنسانية وراحتها.

المعنى الرابع لهذه الآيات هو أن حالة قبضِ النبي ﷺ وبسطِه كلتيهما خير. علمًا أن القابض والباسط هما من صفات الله تعالى التي يعامل بها عباده، فكما أن الإنسان يمرّ بساعة بسط أو عناء في معاملاته المادية، كذلك تأتي عليه في العالم الروحاني ساعةُ بسط يُصبح فيها أكثرَ إنابةً إلى الله تعالى، كما تأتي عليه ساعةُ قبض. ورد في الحديث أن صحابيًا جاء النبيَّ ﷺ وبكى قائلا: يا رسول الله، لقد صرتُ منافقًا؟ فقال ﷺ: لكني أراك مؤمنا. قال: بل منافق يا رسول الله، حيث أشعر في مجلسك أن الجنة على طرف مني والنار على طرف آخر مني، فما تخطر بي خطرة ولا أقوم بعمل إلا وكأني أنظر إلى الجنة والنار، ولكني حين أعود إلى البيت يزول عني هذا الإحساس. فقال النبي ﷺ: هذا هو الإيمان بعينه، ولو بقيتم على حالة واحدة لَمُتُّمْ. (ابن ماجه، كتاب الزهد)

فالواقع أن كل إنسان، صغير وكبير، يمرّ بحالتي القبض والبسط، وإن اختلفتْ شدتهما من شخص إلى شخص. فيكون المرء في صلاة حينًا وفي صيام حينًا، وفي لعب مع أهله وأولاده أو في شغل من أشغاله حينًا آخر، وفي الحمّام حينًا ثالثًا، وكلها أحوال مختلفة يمرّ بها كل إنسان. وصلاتُه أو صومه هي حالةُ بسطه، ولعبُه مع الأهل والأولاد واشتغاله بشغله أو قضاء حاجته كل هذه هي حالات قبضه. وكثير من الناس يُصلّون ويصومون ويحجّون ويذكرون الله ويزكّون أموالهم،

ولكنهم إذا صلّوا فيصلّون فقط، وإذا حجّوا فيحجّون فقط، وإذا زكّوا فيزكّون فقط، وإذ أكلوا فيأكلون فقط، وإذا لبسوا فيلبسون فقط، وإذا ضحكوا مع الأهل فيضحكون فقط، وإذا لعبوا مع الأولاد فيلعبون فقط، فتكون دنياهم دنيا فقط، ودينهم دينًا فقط، ولكن الله تعالى يقول لرسوله ﷺ ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.. أي يا محمد، حالُك عجيبة غريبة، فقبضُك لله، وبسطك أيضًا لله! فعندما تداعب زوجتك فإنما تأتمر بأوامرنا، إذ تقول في نفسك إنما أداعب زوجتي لأن ربي أمرني أن أعاملها بلطف. وعندما تأكل فلا تأكل كأهل الدنيا، بل تبدأه باسم الله وتنهيه بحمد الله، وتسبح الله أثناء تناوُله، وعندما تشرب الماء فلا تشربه كأهل الدنيا، بل تقول إنما أشرب لأنه نعمة ربي. عندما يهطل المطر يستمتع به الناس، ولكن كيف كان محمد ﷺ يستقبل المطر؟ ذات مرة جاءت السحب، ولما نزلت قطرات المزن من السماء خرج النبي ﷺ من غرفته وأخرج لسانه وتلقى به قطر المطر وقال: هذه نعمة جديدة من ربي (مسلم، كتاب صلاة الاستسقاء). وقد قال النبي ﷺ للناس إني لا أنهاكم عن الاستمتاع بنسائكم، ولا أنهاكم عن الطعام أو اللباس، وإنما أقول لكم أن تعملوا كل ذلك احتسابًا لله تعالى وابتغاء مرضاته. لو قمتَ بهذه الأعمال بهذه النية، وجعلت رضوان الله غايتك من ورائها، فإني أقول: لو أطعمتَ زوجتك لقمةً احتسابا لله تعالى فهو صدقة (البخاري، كتاب الإيمان). الغريب أن المرء يضع لقمة في فم زوجته، ويعتبرها الرسول ﷺ صدقة منه، مع أن المرء إذا أحب أحدًا أطعمه في كل حال؛ فقد يجوع بنفسه، ولكنه لا يطيق أن يقاسي حبيبه الجوع. فترى أنه يطعم زوجته إلا أنه لا يُكتب عند الله أنه أطعم زوجته لقمة، بل يُكتب أنه أخرج صدقة ابتغاءَ مرضاة الله. ونفس الحال بالنسبة إلى معاملة المرء مع الموظفين والجيران والأصدقاء، فإذا جعل الإنسان رضوان الله غايته وراء كل معاملاته، وقام بأعماله ابتغاءَ مرضاته فقط، أصبحت الأعمال الدنيوية دينًا وعبادةً عند الله تعالى. ولذلك يقول الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.. أي أن حالتَي بسطك وقبضك كلتيهما لنا. أنت تضاحك زوجتك في الظاهر، وفي الواقع تحابينا.

أنت تلاطف أولادك في الظاهر وفي الحقيقة يعبّر قلبك عن حبك لنا. أنت تتحدث مع الجيران مواساةً لهم في الظاهر وفي الواقع تناجينا. يظن الناس أنك جالس بين ظهرانيهم، وفي الواقع تكون جالسا عندنا. وما دمتَ تنشد قربنا بكل فعل وبكل حركة وسكون وبطرق الدين والدنيا كليهما، فكيف يمكن أن نخذلك ونهجرك في الليل والنهار؟ ما دمنا لم نسخط عليك بسبب أيّ عمل من أعمالك من أكلك وشربك وعِشرتك مع الأهل وعلاقتك مع الجيران، فكيف يمكن أن نهجرك؟ إن أعمالك إنما هي عبادات تقوم بها من أجلنا، فكيف يمكن أن نسخط عليك بسبب العبادات؟ كلا، وإنما نرضى عنك إذ قد حَوَّلت دنياك دينًا ابتغاءَ مرضاتنا.

باختصار، قد بين الله تعالى هنا أن حالتي القبض والبسط لمحمد ﷺ كلتيهما خير.. أي أن عبادتك عبادة بلا شك، إلا أن مشاغلك الدنيوية –التي هي بمنـــزلة الليل– أيضا خاضعة لمرضاتنا، لذا ستعرف الدنيا أن الله لا ينفصل عنك، لا بالليل ولا بالنهار، ولا يسخط عليك بأي فعل من أفعالك.

وهناك معنى خامس لهذه الآيات بيانه كالآتي: إن النهار للعمل، والليل للراحة، والله تعالى يقول لنبيّه ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾.. أي أننا نقدّم للعالم نهارَك الذي تقضيه في الدعوة والتبليغ ولياليَك التي تناجي فيها ربك وتكلِّمه، فنهارك دليل على صدق قولنا ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾، وبتعبير آخر، على صدق قولنا ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾(المائدة:٦٨). كان النبي ﷺ يقوم وقت النهار بدعوة الكافرين الذين كانوا يريدون قتله، ولكن الله تعالى يقول لرسوله ﷺ أن نهارك سوف يشهد أننا معك، وإلا فلماذا لا يقدر العدو على قتلك وأنت تعيش بينه؟ إن أكبر أمنية لأعدائك أن يقتلوك، ولكنهم لا يستطيعون ذلك مع أنك تقضي نهارك بين ظهرانيهم، فثبت أن نهارك دليل على أن الله معك. كما أن لياليك أيضًا دليل على صدق قولنا ﴿وَمَا قَلَى﴾ أي أن ربك ما قلاك.. أي أنه ليس غاضبًا عليك. يصبّ عليك الناس جام غيظهم وغضبهم وقت النهار، وتسمع من أعدائك أنواع السباب والشتائم والافتراءات، فمنهم من يرميك بالغشّ والخداع، ومنهم من يتّهمك بأنك تريد العزة والسؤدد، ولكن نهارك دليل على أننا معك، ذلك أن بوسع الأعداء أن

يقتلوك وقت النهار، ولكنهم يفشلون في تحقيق نيّاتهم الخبيثة لأننا نكون معك. إنهم يسبّونك ويتّهمونك ويتآمرون لقتلك بشتى الحيل والمكائد، ولكنهم يبوءون بالفشل في كل مرة، وهكذا تشهد كل ساعة من نهارك على صدقك وسدادك أمام العالم. ثم عندما تأوي إلى بيتك بعدما سمعتَ السباب والشتائم طوال النهار، تقول في نفسك ماذا أفعل، إن الدنيا كلها ساخطة عليّ، عندها نطمئنك ونقول لك: إذا كانت الدنيا ساخطة عليك فلا ضير، لأننا لسنا بساخطين عليك.

كان من عادة المسيح الموعود عليه السلام أن يسجِّل في مذكرة له كل فكرة نبيلة أو عاطفة طيبة خطرت بباله. وذات مرة رأيت مذكّرته هذه فوجدتُ أنه قد كتب فيها مخاطبًا ربّه ما يلي:

"يا مولاي، ويا مالكي الحبيب، ويا محبوبي وربي المعشوق، تقول لي الدنيا أنت كافر، ولكن أنّى لي أن أجد حبيبًا مثلك حتى أتركك مِن أجله؟ أما أنا فأرى أن الناس حين يكونون غافلين عن الدنيا وما فيها، وحين لا يعرف بحالي حتى أصدقائي وأعدائي أيضا، توقظني عندها وتقول لي بحب ولطف: لا تحزنْ، إني معك. فكيف يمكن يا مولاي أن أتركك مع إحسانك هذا؟ كلا ثم كلا." (جريدة "بدر"، ١١-١-١٩١٢ ص ٦).

هذا هو المراد من قوله تعالى ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.. أي أن نهارك دليل أني معك، إذ لا يستطيع العدو أن يبسط لك يده بسوء، وأن ليلك دليل أني لم أسخط عليك، إذ تسمع في النهار أنواع الإساءة من العدو، فيصاب قلبك بحزن شديد، ولكن عندما يحلّ الليل نقول لك: لا تحزن من سبّ العدوّ، فإنا راضون عنك. فالحماية الإلهية لك في النهار، والمكالمة الربانية معك في الليل، كلتاهما دليل على صدق قولنا ﴿ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.

أما المعنى السادس لهذه الآيات فهو أن كل إنسان يمر بالقبض والبسط الروحانيّيْن. علمًا أن ما ذكرتُه آنفًا من معاني القبض والبسط كان خاصًا بالمشاغل الدينية البحتة والمشاغل المادية البحتة، غير أن القبض والبسط يأتيان على حالة المرء الروحانية البحتة، والجميع سواسية في ذلك، صغارا كانوا أم كبارا، وهذه الحالة

من القبض والبسط الروحاني ضرورية لرقي الإنسان، ولذلك يقول الله تعالى لرسوله الكريم ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾. ومثال حالات القبض الروحاني في حياة النبي ﷺ هو توقُّف نزول الوحي عليه بعض الأيام، إذ كانت فترة القبض الروحاني قد أرادها الله له. يقول الله تعالى: نعرض على الناس فترات بسطك الروحاني التي هي بمثابة الضحى، وأيضا فترات قبضك الروحاني التي هي بمثابة الليل، بمعنى أن حالتك الروحانية لن تبقى بمثابة الضحى دائما، بل تأتي عليه حالة مشابهة لظلمة الليل، فيتوقف نزول الوحي حينًا، أو لا يحلّق قلبُك في الرفعة العالية في بعض الأحيان كما يحلّق في الأوقات الأخرى، غير أن حالة قلبك هذه تختلف عن حالة قلوب الآخرين كليةً، لأن الآخرين إذا كانت قلوبهم في حالة قبض روحاني ابتعدوا عن الله تعالى، أما أنت فاعلمْ أنه ﴿ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.. أي أن ضُحاك الروحاني محبوب إلينا، كما أن ليلك الروحاني أيضا محبوب إلينا.

الواقع أن كل شيء في الدنيا عبارة عن أمواج، فالجبال موجات، والأنهار موجات، والرياح موجات، والكهرباء موجات، فكل شيء عبارة عن موجات. فكما أن قانون الموجات جارٍ في العالم المادي فهو جارٍ في العالم الروحاني تمامًا. وهذه الموجات الروحانية تختلف في حالتها من شخص إلى شخص، فمن الموجات الروحانية ما يكون أدناها كفرًا وأعلاها كفرًا أيضًا، ولو طرأت على المرء خشيةُ الله خلال هذه الموجات ما كانت علامةَ الإيمان الحقيقي. بينما هناك موجات روحانية أدنى درجاتها كفرٌ وأعلاها إيمان. ثم هناك موجات روحانية لا تكون أدنى درجاتها كفرًا، ولكنها لا تدل على معية الله للمرء، بمعنى أن أدنى درجة في تلك الموجات الروحانية لا تكون دليلا على غضب الله تعالى، إلا أننا لا نستطيع أن نقول عن صاحبها أنه في معية الله في تلك الحالة، إذ هناك حالةٌ روحانية تُعتبر معيةَ الله، وحالةٌ أخرى لا تُعتبر معيةَ الله، وهما مقامان مختلفان يمر بهما المرء في سلوكه الروحاني، وبرؤية أدنى حالته الروحانية لا نستطيع القول إنه مقبول عند الله تعالى، كما لا نستطيع القول أنه مطرود من عنده ﷻ. نعم، إن أعلى حالته الروحانية تكون دليلا على فوزه بمعية الله بلا شك. غير أن هناك مقامًا روحانيا لا يزال

صاحبه متمتعًا بمعية الله تعالى على الدوام، سواءً هبطت موجته الروحانية أم ارتفعت، ولذا يقول الله تعالى لرسوله الكريم ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.. أي تأتي عليك فترةُ موجات روحانية عالية هي بمنزلة الضحى حيث تكون أمام الله تعالى كليةً، كما تأتي عليك فترةُ موجات روحانية أقل ارتفاعًا أي حالةُ القبض الروحاني أيضا، ولكن اعلمْ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.. أي أن معية الله تعالى ميسرة لك في قبضك الروحاني وكذلك في بسطك الروحاني ولا تخلو من معية الله ورضوانه بحال من الأحوال. إن حالة قبضك وبسطك كلتيهما دليل على معية الله ورضوانه، إنما الفرق فرقُ درجةٍ وكمية فقط. وهذا هو المقام الذي أشار إليه الصوفية بمقولتهم الشهيرة: "حسنات الأبرار سيئات المقربين" (تشييد المباني في تخريج أحاديث مكتوبات الإمام الرباني ص ٣٤). الواقع أن إيضاح هذا المقام جدّ صعب، ولأجل ذلك لجأ الصوفية إلى هذه الإشارة بدلاً من بيانه.. أي أن ما يعتبره الأبرار مقام البسط الروحاني أي أعلى درجة من العرفان الإلهي بالنسبة لهم إنما هو مقام القبض الروحاني عند المقربين. وحيث إن هؤلاء الصوفية قد بينوا هذا الأمر إيماءً وإشارةً فأنا أيضا مضطر لبيانه بالإشارة. الواقع أنها موجات روحانية ترتفع حينا وتنخفض حينا آخر. لقد كان شرح هذا الأمر صعبًا على الأولين، ولكنه أصبح سهلاً لي –نسبيًا– بسبب اختراع علم الموجات في هذا العصر. باختصار، قد بين الله تعالى هنا أن موجات المقام المحمدي المنخفضة والعالية كلتيهما دليلٌ على صدق قول الله تعالى ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾، إذ تيسرت له ﷺ معية الله تعالى في الحالتين كلتيهما، ولن يأتي عليه وقت يتعرض فيه لسخط الله وعدم رضاه. ستظهر صفة الله القابض في حقه ﷺ بحيث تكون كل حالة قبض سببًا للبسط وللمزيد من الرفعة، شأن الطائر يصاب بهزة أثناء الطيران بحيث يبدو للرائي أنه قد هبط في طيرانه، مع أن هذه الهزة جزء من الطيران.

والمعنى السابع لقوله تعالى ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.. هو أن لكل نبي حياتين؛ حياته الشخصية وحياة أُمّته، ولو فسّرنا هذه الآيات نظرًا إلى الحياة الشخصية للنبي ﷺ فتخص فترتا الضحى والليل كلتاهما حياتَه

الشخصية، أما إذا فسرناها نظرًا إلى حياة أمته ﷺ فتتعلقان بالأدوار المختلفة لأمته بعد وفاته، وقوله تعالى ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ هو في الحقيقة إشارةٌ إلى حياة الرسول ﷺ الجماعية أي حياة أمته.. فكأنه تعالى يقول: إننا نقدم شهادةً تلك الفترةَ التي تكون فيها حياتك الجماعية بمثابة الضحى، كما نقدم شهادةً تلك الفترةَ من حياتك الجماعية التي تكون بمنـــزلة الليل. الواقع أن كل أُمّة تمرّ بأدوار مختلفة من الرقي والانحطاط، فأحيانا يطلع عليها ضحى الانتصار والازدهار، وأحيانا تحيط بها ظلمات الفشل والإدبار، والقاعدة العامة أن الأمم إذا أصابها الانحطاط بعد الازدهار شملها الهلاك والدمار، ولكن الله تعالى يعلن هنا أنه سيعامل أمة الرسول ﷺ على عكس ذلك، فيخبر أننا لا نقول أن زمن نبوة محمد –الممتد من دعواه إلى يوم القيامة– سيظل محفوظا من الانحطاط أو سيظل مضيئا كالضحى دائمًا، ولن تبتعد أمته عن الله تعالى ولن يروا الإدبار والضلال؛ بل نعلن أنه سيأتي عليهم أدوار من الضحى وأدوار من الليل إذا سجى، ومع ذلك نَعِدُهم وعْدًا لم نقطعه بحق أي أمة من قبل، وهو أن فترتَي الضحى والليل من حياة أمة محمد ﷺ كلتيهما ستكون دليلاً على صدق قولنا: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾. ففيما يتعلق بالأتباع فستأتي عليهم ساعات من الضحى حينًا وتحيط بهم ظلمة كظلمة الليل حينًا، ولكن فيما يتعلق بالشريعة المحمدية واستمرار علاقة العباد بربهم فلن يأتي على أمة محمد ﷺ فترة لا يصدق عليها قولنا ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾. لا شك أن الأمة المحمدية ستصاب بالانحطاط ومعظم أفرادها سيسقطون ويتردَّون، وضحى النجاح والإقبال سيختفي، مع ذلك سيظل هنالك طائفة منهم قد قُدّر لهم الحياة حائزين على رضوان الله ومعيته تعالى.

والحق أن الله تعالى قد أخبر هنا نبيّه ﷺ أنه يمكن للأمم الأخرى أن تزدهر ماديًا رغم إعراضها عن الله تعالى، ولكن أمتك لن تستطيع ذلك، بل كلما أتت عليهم فترة الضحى فإنما تأتي بحسب قولنا ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾، فلن يحرز المسلمون رقيا عظيما معرضين عن الله تعالى، كما الحال بالنسبة إلى الأمم الأخرى. وبالفعل نرى أنه عندما أصيبت الأمم الأخرى التي بعث الله فيهم أنبياءه في الماضي بالانحطاط الروحاني، فإنها ازدهرت ماديًا رغم إعراضها عن الله تعالى، ولكن الله تعالى يخبر نبيه

ﷺ هنا أننا لن نعامل أمتك هكذا، بل كلما أتى عليهم وقت الضحى فإنما يأتي بحسب قولنا ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾، ولن نكتب لهم الرقي المادي إلا مع صلاح دينهم، فمن المحال أن تأتي عليهم فترة الضحى وهم تاركون اللهَ تعالى أو مصابون بانحطاط ديني وأخلاقي.

انظروا إلى النصارى، قد أتت عليهم فترة الرقي المادي، ولكن متى؟ لقد ازدهروا عندما ماتت المسيحية عمليًا. فبعد انقضاء ثلاثة قرون عندما ضعف المسيحيون ضعفًا روحانيًا شديدا وتسربت إليهم أنواع المفاسد خلافًا لتعاليم المسيح عليه السلام، عندها جاءت عليهم فترة الضحى المادي. بينما يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: يا محمد، لن نفعل هكذا مع أمتك، فلن تأتي على المسلمين فترة الضحى إلا إذا كانوا على صلة مع الله تعالى حقًا، أما إذا قطعوا صلتهم معه تعالى بسوء أعمالهم فلن تأتي عليهم فترة الضحى. وبالفعل نرى أن المسلمين كانوا حائزين على الميزتين في زمن الخلافة الراشدة التي كانت فترة رقي الإسلام، إذ كانوا غالبين روحانيا، كما كانوا في ضحى مادي أيضا. أما في هذا العصر الذي هو فترة انحطاطهم الروحاني فلم يستطيعوا أن يرجعوا بفترة الضحى تلك رغم أنهم اتخذوا كل التدابير التي تتخذها الأمم الأخرى لرقيها المادي واحدًا بعد الآخر. قالوا قد ازدهرت الأمم الأخرى بالتعامل الربوي فتعالوا نتعامل بالربا ونتنافس مع الأمم الأخرى في هذا الرقي، فتعاملوا بالربا، فظلوا يتردّون أكثر فأكثر، مع أن الأمم الأخرى ازدهرت بالربا. ثم قال المسلمون قد ازدهرت الدنيا بالتعليم المادي، فتعالوا نهتم بالتعليم المادي، فاندفعوا بكل قوة وحماس لإصلاح حالتهم العِلمية، ومع ذلك لا يزالون يسقطون إلى الحضيض نتيجة هذا التعليم، بينما ازدهرت الأمم نتيجة هذا التعليم المادي. ثم قال المسلمون إن الأمم قد ازدهرت بالتجارة، فتعالوا نتّوجه إلى التجارة ونتغلب بها على العالم كالأمم الأخرى، فتوجهوا إلى التجارة، ولكن لم تزدهم تجارتهم إلا خسارةً وخزيًا، بينما غلبت الأمم الأخرى بتجاراتها. باختصار، قد بذل المسلمون كل ما في وسعهم من أجل الرقيّ المادي، ولكن لم تحقق لهم تدابيرهم حُلم الازدهار، مع أن هذه التدابير هي التي ساهمت في رقي الأمم الأخرى.

فثبت أن جميع الأمم في الدنيا تزدهر ماديًا رغم إعراضها عن الدين، ولكن الله تعالى قد جعل للمسلمين قانونًا جديًدا بأنه لن تأتي عليهم فترة الضحى إلا بحسب قوله تعالى ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.. أي من المحال أنهم أن يتركهم الله يزدهرون كالأمم الأخرى وهُمْ عنه معرضون.

ولهذه الظاهرة سببان: مادي وروحاني. أما السبب المادي فهو أن الديانات السابقة –ما عدا اليهودية– لم تأت بتعاليم مفصلة كالتي أتى بها الإسلام، فيزدهر أتباعُها رغم إعراضهم عن تعاليمها، إذ لا يصابون باضطراب ذهني، فكل ما يختارونه يسمّونه دينًا لهم، كما تفعل المسيحية والهندوسية، ولكن تعاليم الإسلام مفصلة ومحفوظة، وستظل محفوظة إلى الأبد، وكلما حاول المسلمون التقدم معرضين عنها وقعوا في اضطراب ذهني يسلب اطمئنان قلوبهم، فيُبعدهم عن الدين كليةً أو يحول دون رقيهم.

أما السبب الروحاني فهو أنه إذا سمح الله تعالى لأمةٍ بالرقي رغم إعراضها عن دينها كان هذا دليلا على أن الله تعالى قد ودّعهم وهجرهم، إذ لم يبق طريق لإنذارهم. لقد كتب الله الرقي للأمم الأخرى رغم إعراضها عنه تعالى لأنه قد تركهم وهجرهم، بينما يقول لنبيه ﷺ يا محمد، لن نودّعك أبدًا ولن نودّع أمتك أيضا، ولذلك لن يحرزوا رقيًا بدون اتّباع دينهم، إذ لو كتبنا لهم الرقي من دون أن تصلح حالتهم الدينية فسيظنون خطأً أن الله راضٍ عنهم، فيزدادون بعدًا عن الدين، ولأجل ذلك لن نأتي عليهم بفترة الضحى وهم غافلون عن الدين، بل كلما كانوا غافلين عن الدين وفي ليل روحاني عاقبناهم، لأن عدم عقابهم يعني موتهم. باختصار، يعلن الله تعالى هنا أننا سنظل مع المسلمين ونعطيهم نصيبهم من الترقيات المادية ما داموا عاملين بدينهم، ولكنهم إذا هجرونا فلن نتركهم بل سنعاقبهم على سوء أعمالهم، ليس لنهلكهم، بل لنعود بهم إليك يا محمد لكي يتمسكوا بدينك بقوة. ففي الحالتين نعاملهم معاملة تدفعهم إلى التمسك بأهدابك وعدمِ التفكير في تركها طرفة عين، فيزدهرون ما داموا معك، أما إذا تركوك فسوف نعاقبهم لتعود إليهم فترةُ الضحى والضوء ثانية. ستكون معاملتنا معهم حتى في فترة الظلمة والانحطاط أيضًا دليلا على صدق قولنا ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ حيث نحذرهم ونعاقبهم ليصلحوا حالهم، وحين يعودون إليك

ستنتشر أنوارك وبركاتك في الدنيا ثانية، وهكذا تصدِّقُ فترتا الضحى والليل كلتاهما قولَنا ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾. ففترة الضحى تصدِّقُ قولنا هذا من حيث إنهم كلما ازدهروا رأى العالَمُ نورَ الإسلام، وفترة الليل تصدِّقُ قولنا هذا من حيث إنهم كلما أُصيبوا بالانحطاط عاقبهم الله تعالى ليعودوا إليك مرة أخرى، أو أقام شخصية روحانية تكشف جلالك وجمالك للعالم.

باختصار، إن الإسلام آخر الأديان، فلذلك لا تسمح أقدار الله الخاصة للمسلمين أن يزدهروا من دون الإسلام حتى لا يطمئنوا ويصبحوا غافلين عن الإسلام غير مبالين بالدين. وهذا ما أشيرَ إليه في قوله تعالى ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.. أي أن رقي المسلمين والقرب الإلهي سوف يسيران جنبًا إلى جنب دومًا، فلن تزدهر الأمة الإسلامية من دون قرب الله تعالى ومعيته ورضاه، وكلما ترك المسلمون دينهم حُرموا من الترقيات المادية أيضا.

والمعنى الثامن لقوله تعالى ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.. أنه سيأتي على الإسلام زمن الانحطاط ولكنه لن يدوم، بل يكون دليلا على صدق قولنا ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.. بمعنى تليه فترة الخير دائمًا وتأتي بعد كل ظلمة فترةُ الضحى والضوء، لأن زوال الظلمة هو الدليل على معية الله ورضاه في فترة الظلام، فالمراد من كون الله تعالى راضيًا عنك حتى في زمن الليل هو أنه تعالى سوف يهيئ الأسباب لنضارة الإسلام ثانية ويقيم مأمورًا لإصلاح الناس، فيعود المسلمون إليه يائسين من جهودهم وتدابيرهم، وحيث إنه يكون نائبا لك يا محمد، فعودتهم إليه تكون بمنـــزلة عودتهم إليك في الواقع.

والمعنى التاسع لقوله تعالى ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ هو أن شريعة الإسلام ستظل محفوظة في فترتَي الرقي والانحطاط كلتيهما. اعلمْ أن الأمم تحرّف شرائعها في الفترتين، فبعضها بسبب غفلتها تدَع شرائعها تُحرَّف زمن انحطاطها، وبعضها تُحرِّفها بنفسها زمن رقيها. لقد انغمست الأمم السابقة في الملذّات في فترة ضحاها ورقيّها، وحرّفت من شرائعها ما لا يتماشى مع أهوائها، فمثلا: عندما نالت المسيحيةُ الحُكمَ والمُلك طالبَهم الشعب الغالب على أمرهم

(الرومان) بجعل يوم الأحد يوما للعبادة بدلاً من السبت، لأن فيه سهولة لهم، فلم يلبث المسيحيون أن غيّروا يوم العبادة من السبت إلى الأحد إرضاءً لهم. ثم قال لهم الشعب الغالب: كنّا في زمن الكفر نحتفل بالعيد في يوم كذا، فليكنْ عيدنا في ذلك اليوم في المسيحية أيضًا، فرضي المسيحيون بمطلبهم وغيّروا هذا الحكم أيضًا (الموسوعة الدينية المجلد ١٢ ص ١٠٤ كلمة: SUNDAY IN THE PRIMITE CHURCH)

وتُحرَّف أحكام الشرع في أيام انحطاط الأمم حين تكون مقصرة غافلة عن دينها ولا تُعظِّم أحكامه. فالشرائع تُحرَّف في الفترتين: فترة الضحى وفترة الليل. ففي فترة الضحى تُحرّف الأمم شرائعها من أجل الانغماس في الملذات، أما في فترة الليل فإما أن العدو يحرّق كتبهم ويتلفها، أو أنها لا تستطيع الحفاظ على شرائعها نتيجة ضعفها، ومثاله ما فعل "نبوخذنصر" باليهود، فإنه حين أجلاهم من وطنهم كانت تلك الفترة فترة ليل للأمة اليهودية، فلما رجعوا إلى وطنهم بعد مدة من الزمن لم يجدوا كتابهم التوراة، فقام النبي عزرا بجمع التوراة بمساعدة بعض الأحبار، ولكنها لم تكنْ كما نزلت على موسى عليه السلام. (أخبار الأيام الثاني ٣٦: ١٩، و APPOCRYPHA; 11 (ESDARAS XIV P.44

ولكن الله تعالى يقول لرسوله ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.. أي أن هذا لن يحصل لأمتك في أي من الفترتين، بل نكون معك في فترتي الرقي والانحطاط، ولن ندع عملك يضيع ويُدمَّر. ما كان للرسول ﷺ أن يعيش للأبد بل كان لا بد أن يُتوفى يومًا ما، بينما القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي سيبقى إلى يوم القيامة، لذلك طَمْأَنَه الله تعالى أنه سواءً أتت على أمتك فترة رقي أو فترة انحطاط فإننا لن ندَع الكلام النازل عليك يُحرَّف، بل سوف نحفظه دائمًا أبدًا. الواقع أن انحطاط الأمة وحده ليس بشيء، لأنه يدل على فساد الأفراد، ولو أحرزوا الرقي بعد الانحطاط لأزالوا وصمة عار الفشل السابق، ولكن إذا حُرّفت شريعتهم ثم ازدهروا فلا قيمة لرقيهم مطلقا. إن انحطاط الأمة وحدها أو تغيُّر حالة الناس ليس بأمر خطير، إنما الخطير هو تغيُّرُ الرسول أعني تحريف تعاليمه وإفساد

كلامه؛ ولذلك وعد الله رسوله أنه سوف يحفظ ما أنزله عليه من الوحي في الفترتين؛ فترة ازدهار أمته وفترة انحطاطها أيضًا.

وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾

التفسير: كثير من الناس يحرزون الرقي العظيم فجأة، ولكنهم يتعثرون ويسقطون في النهاية. خذوا مثلا هتلر ونابليون وتيمورلنك والاسكندر.. فكلهم تقدّموا وازدهروا ولكن كانت نهايتهم الفشل. كان في الماضي كثير من العظام الذين أحرزوا رقيًّا مدهشا ولكنهم سقطوا في النهاية وفقدوا كل ما نالوه من عزٍّ وصيت. كثير من الناس يكونون عباقرة ذوي ذكاء خارق، ولكنهم يصابون بالجنون أو يفقدون ذكاءهم في النهاية. كان "المولوي محمد حسين آزاد" من مدينة لاهور نابغةً من النوابغ، ولكنه أصيب بخلل في عقله في آخر عمره، حتى كان الناس يجتمعون حوله إذا مر بالسوق، وإذا كلّمه أحد سبّه سبًّا غليظًا. وكثير من الناس يكونون علماء أفذاذًا، ولكنهم يصبحون جاهلين في النهاية؛ حيث تضعف ذاكرتهم فينسون علومهم كلها. وكثير من الناس يكونون محبوبين لدى القوم، ولكنهم يصبحون مطرودين في النهاية، بل هذا هو مآل جميع المحبوبين الماديين، حيث ترنو إليهم الأبصار في شبابهم، ولكن حين تسقط أسنانهم وتتحدب ظهورهم وتتجعّد وجوههم، فإن أَبشعَ الناس صورةً يضحك برؤيتهم قائلاً: ما أسوأَ صورة هذا الإنسان!

هناك قصة شهيرة في فرنسا وهي أن شخصا رأى عجوزًا، فكَرِهَها بمجرد رؤية صورتها ومشيتها كراهةً شديدة، فأخذَتْه إلى بيتها وقدّمتْ له صورة وقالت: هل تعرف من صاحبة هذه الصورة؟ قال: نعم، أنا أعرفها إنها صورة تلك المرأة الشهيرة وهي صديقة لأمي، وكانت بارعة الجمال بحيث إن كل باريس كانت تعشقها. فقالت العجوز: إنها صورتي.

فثبت من هنا أن كثيرا من المحبوبين يصبحون مبغوضين في النهاية.

ولكن الله تعالى يقول لرسوله الكريم لن يكون مآلك هكذا، بل ستحرز الترقيات التي ستزداد دوما. وبالفعل، قد خضعت له ﷺ المدينة وما حولها، ثم فتَح مكةَ ثم الجزيرة العربية كلها ثم الشام والعراق ومصر، فلم يزلْ يقطع أشواط التقدم باطراد.

قد يقول قائل هنا: صحيح أن مكة فُتحت على يد محمد ﷺ، ولكن العراق ومصر وغيرهما قد فُتحتا بعد وفاته، فلعل هذه البلاد ذُكرتْ هنا خطأً، ولكني لم أذكرها خطأً بل عمدًا.

كذلك قد يقول قائل: إذا كان فتح العراق ومصر وغيرهما دليلاً على تحقُّق قوله تعالى ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾ فلماذا أصيب الإسلام بالانحطاط بعد هذه الفتوحات؟ وكيف يصح القول: ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾؟

والجواب أن الله تعالى إنما قال هنا ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾.. أي أن قانوننا الدائم لمحمد ﷺ هو أن آخرته ستكون أفضلَ من أُولاه. وبالفعل ظلّ الإسلام في ازدهار وانتشار ما دام محمد ﷺ موجودا بين المسلمين روحانيا، ولكنهم لما تركوه ﷺ بدأ الانحطاط يدبّ في كيانهم. لقد فتح المسلمون العراق والشام ومصر، لأن محمدا ﷺ كان موجودا بينهم روحانيًا. لا شك أنه كان قد تُوفي ماديا، ولكنه كان موجودا في أمته روحانيا. إنه ﷺ لم يكن حيًا في الدنيا بجسده العنصري، ولكنه كان حيًّا في قلب أبي بكر وفي قلب عمر وفي قلب عثمان وفي قلب علي ﷺ، ولذلك أحرز المسلمون في تلك الفترة فتحًا بعد فتح، ولكن لما جاء من بعدهم قوم لم يكن الرسول ﷺ حيًّا في قلوبهم، بدأ انحطاط المسلمين. علينا أن نلاحظ أن الله تعالى لم يقل هنا: "وللآخرة خير ليزيد أو لغيره"، بل قال: ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ﴾، أي يا محمد، إن الآخرة خير لك من الأولى. وبالفعل لم يزل هذا الوعد يتحقق للمسلمين ما دام محمد ﷺ موجودا فيهم عمليًا، ولكن حين جاء بعدهم قوم لم يستحقوا اسمَ محمدٍ ﷺ ولم يتّبعوا خطواته، تركهم الله وخذلهم.

ومن أروع الأمثلة على صدق قوله تعالى ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾ أن النبي ﷺ لما خرج لمعركة بدر كان في رفقته ٣١٣ من الصحابة، ولما خرج لغزوة

أحد كان يرافقه ألف صحابي، وحين خاض معركة الخندق كان معه ثلاثة آلاف صحابي، وعندما فتح مكة رافقه عشرة آلاف صحابي. فلم يزل عدد صحابته يزداد باستمرار بحسب وعد الله تعالى له ﷺ ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾.

ثم لم يزل تقوى النبي ﷺ وصلاحه يزداد باستمرار. لم تجعله الثروة ولا الإمارة جبّارًا متشدّدًا، بل ظلّ عندها أيضًا متحلّيًا بصفاته الحميدة من رعاية الفقراء والتواضع والعبادة والاستغناء عن غير الله تعالى. بعد فتح مكة جذبه شخص من ردائه بعد أن لواه في عنقه ﷺ وجرّه بشدة، ولكنه لم يعاقبه (مسند أحمد).

اتهمه أحد الظالمين عند قسمة المال بقوله: "تلك قسمة ما أريد بها وجه الله"، فأراد صحابي قتل هذا الطاعن ولكن النبي ﷺ نهاه عن ذلك. (البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الطائف)

فإذا نظرت إلى الأمر من الناحية المادية فترى شخصًا يخرج من مكة وحيدًا، ولكنه يدخلها منتصرا في رفقة عشرة آلاف قدوسي، أما من الناحية الروحانية فترى أنه ﷺ كان يربّي في مكة أربعة أو خمسة أفراد، أما في المدينة فبدأ يربي مئات الآلاف، ثم إنه قد تولى تربية هؤلاء الآلاف على نفس المنوال الذي كان يربي به في مكة أفرادًا يُعَدّون على الأصابع.

عندما بدأت الفتوحات في زمن الرسول ﷺ اشترى عمر رضي الله عنه حُلّةً من السوق وأهداها له قائلا: يا رسول الله، لقد أعجبتني هذه الحلّة فاشتريتُها لك؛ يأتي لزيارتك كبار الملوك والوفود بعد الفتوحات، فأرجو أن تلبَسها عند زيارتهم. فاحمرّ وجه النبي ﷺ بسماع قوله وقال: لم أُبعَثْ لهذه الأمور ولن ألبسها، وعليك أن ترجعها. (البخاري، كتاب الأدب)

فترى أنه ﷺ لم يغيّر من سلوكه شيئًا، ولم تدفعه الفتوحات إلى لبس الثياب الفاخرة المزركشة، وإنما زادته بِرًّا وتقوى وصلاحا.

أما حبه في القلوب فأيضًا ازداد يوما فيوما. لا شك أن أهل مكة كانوا فدائيين، ولكنهم لم يستطيعوا التعبير العملي لفدائيتهم إلا بعد أن خرجوا منها، إذ لا نجد من أمثلة فدائيتهم له ﷺ في مكة إلا حادث فدائية علي رضي الله عنه أو حادث فدائية أبي بكر

ﷺ في غار ثور. كان المسلمون في الفترة المكية يهاجرون إلى الحبشة فرارًا من مظالم الكافرين، وهكذا كانوا يتركون الرسول ﷺ وحيدا. أما في المدينة فقد وجد ﷺ جماعة من الأنصار والمهاجرين الذين أحبّوه حبًّا لا نجد له نظيرا في التاريخ. فقد أعدّ الأنصار يوم غزوة بدر عريشًا للرسول ﷺ وتركوا عنده أبا بكر، وأعطوهما ناقتين سريعتين، وقالوا: يا رسول الله، لم يعرف إخواننا في المدينة أن هناك حربًا تخوضها وإلا فما كانوا ليتخلفوا عن شرف القتال معك. يا رسول الله، لو قُتلنا كلنا في المعركة، فاركبْ أنت وأبو بكر الناقتين والحقا بالمدينة، فهنالك إخواننا البواسل الذين سيسعدون بطاعتك في كل ما تأمرهم به، ويضحون بأرواحهم في سبيل الإسلام. (السيرة الحلبية، الجزء الثاني، باب ذكر مغازيه ﷺ)

ثم نشاهد فدائية الصحابة الرائعة في غزوة أحد؛ كان طلحة أحد المهاجرين المقاتلين بجنب الرسول ﷺ. ولما كان الرسول ﷺ هو الهدف الأساس لسهام العدو، فكلما أتى سهم إلى النبي ﷺ تلقاه طلحة بيده، حتى شُلّت يده من السهام المنهمرة. فسئل فيما بعد: ألم تكن تتألم وتتأوه عندما كانت السهام تصيب يدك؟ فقال: كنت أتألم ولكني لم أتحرك مخافة أن يصاب النبي ﷺ.

وهناك حادث آخر وهو لمالك الأنصاري، فبعد الفتح الأول في غزوة أحد، ذهب مالك جانبًا ليأكل التمر إذ كان جائعا جدا. ثم مرّ بعُمر وهو جالس على تلّ يبكي، فسأله في حيرة: أهذا وقت البكاء أم الفرحة؟ أتبكي وقد كتب الله للإسلام الفتح؟ فقال عمر: إنك لا تعرف ماذا حصل بعد الفتح؟ قال: ماذا حصل؟ قال: انقلب الفتح هزيمة. فقد فاجأنا العدو بهجوم شديد ونحن نجمع الغنائم مفرَّقين متشتّتين، حتى استُشهد النبي ﷺ. فقال مالك لعمر: فما تصنع بالجلوس والبكاء هنا؟ إذا كان نبينا الحبيب ﷺ قد استُشهد فحري بنا أن نلحق بالحبيب؟ ثم أشار إلى التمرة التي كانت بيده قائلا: ليس بيني وبين الجنة إلا أنت، ثم رماها وانقضّ على العدو بسيفه. كان يمكن أن يفكر مالك أن الذي يفدونه بأرواحهم قد مات، فما الفائدة في التضحية بحياته الآن؟ ولكنه لم يفكر هكذا بل قال: علينا أن نضحي في سبيل الهدف النبيل الذي قام النبي ﷺ من أجله بنفس الحماس والقوة التي كنا

نضحي بها في سبيله في حياته ﷺ. ما الحرج إذا لم يكن النبي ﷺ حيًّا؟ سأخرج وحدي لمحاربة العدو كلهم. فأخذ سيفه واستقبل العدو. ولكن ماذا يمكن أن يفعل شخص وحيد إزاء جيش قوامه ثلاثة آلاف جندي؟ فقُطِّع جسمه إربًا حتى صار سبعين قطعة، و لم تُعرف جثته إلا بعد جمع هذه القطع المفرَّقة. مما يدل على الحماس الخارق الذي حارب به مالك الأنصاري رضي الله عنه. لقد قاتل العدوَّ بشجاعة نادرة ما دام حيًّا. قُطعت إحدى يديه، فأخذ السيف بالأخرى، فقُطعت الأخرى، فأخذ السيف في فمه وظل يحارب الأعداء. فاغتاظوا غيظا شديدا وقطعوه إربا. ومن كثرة ضربات السيف على جسده وتقطعه إربًا لم يستطيع المسلمون معرفة جثته، حتى عثروا على بنان له عليها علامة عرفتْه بها أخته وقالت: هذه جثة أخي. (تاريخ الطبري، عزوة أحد، وشرح الزرقاني، باب غزوة أحد)

إذن، فلم يزل الرسول ﷺ يزداد حبًا في القلوب يوما فيوما بحسب قوله تعالى ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾، حيث ضرب الصحابة الكرام أروع أمثلة الفداء والولاء لا نجد نظيرها عند أتباع أي نبي في التاريخ.

ثم إنّ ما حصل بعد وفاة النبي ﷺ لهو أكبر دليل على حب الصحابة له. كان الصحابة يسمعون ليل نهار أن الموتى لا يرجعون إلى الدنيا، وأن محمدا ﷺ سيموت أيضًا، ولكنهم عندما سمعوا خبر وفاته أُصيبوا بحالة شبيهة بالجنون حتى ظنوا أنه لم يُتَوَفَّ، حتى استلّ عمر رضي الله عنه سيفه وقال: سأضرب عنق مَن قال إن محمدا قد مات. ويقول حسان رضي الله عنه: كان اليأس قد استولى على قلوبنا، ولكن لما قام عمر بسيفه تولد فيها أمل كاذب وفرحنا وظننّا أن النبي حي لم يمت. حتى صعد أبو بكر المنبر وقال للقوم: أَمَّا بَعْدُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لا يَمُوتُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾(آل عمران:١٤٥)، فعاد الصحابة إلى صوابهم بقول أبي بكر رضي الله عنه، حتى قال عمر إنه لما قرأ أبو بكر هذه الآية انتبهت إلى الواقع. كنتُ أريد ضرب رقبة أبي بكر عندما بدأ خطابه، ولكن لم أستطع رهبة منه، فكنت أنتظر حتى ينهي هذا العجوز كلامه

فأقتله، ولكنه لما بلغ نهاية خطابه عُقرت رجلاي وسقَطت على الأرض. (السيرة النبوية لأحمد بن زيني دحلان، الجزء الثالث)

يمكن تقدير الحزن الذي أصاب الصحابة بموت حبيبهم بالشعر التالي لحسان بن ثابت، فإنه لما أيقن بوفاته ﷺ قال:

كنتَ السّوَاد لناظري ... ... فعَمِي عليك الناظرُ

من شاء بعدك فليمت ... ... فعليك كنتُ أحاذرُ

(ديوان حسان بن ثابت، ص ٤٧٨)

أي قبل أن يقف فينا أبو بكر خطيبا كنت أظن لعل الرسول ﷺ لا يزال حيًّا، ولكنه كشف الغطاء عن أعيننا فلا أملك إلا أن أقول الآن: يا محمد ﷺ، كنت حدقةَ عيني، وبموتك عميت عيني. عندما كنتَ حيًا كنتُ أستمتع بكل ما يمكن أن يستمتع به الإنسان من نِعم الدِين والدنيا، وكانت كل النعم ماثلة أمام عيني، ولكني صرت أعمى بموتك، فمن شاء بعدك فليمتْ، فإني لا أبالي الآن وإن مات أبي أو ابني أو زوجتي أو أخي، إذ لم أكن أخاف إلا عليك أنت.

ما أعظمَ الحبَّ الذي أعربَ عنه الصحابة عند وفاة النبي ﷺ، ولا شك أنه دليل على صدق قوله تعالى ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾. عندما يموت أحد في الدنيا يتنفس بعض أهلها الصعداء عادةً قائلين: نِعْمَ ما حصل، فقد تخلصنا منه، ولكن لما توفي رسول الله ﷺ حزن الجميع، أزواجه وأولاده وأصحابه أجمعون.

ومن أمثلة صدق قول الله تعالى ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾ أن مكة كانت بيته ﷺ الأول، ولكن لم يكن له هنالك إلا بضعة أقارب، ولم يكن له هنالك ناصر إلا عمه أبو طالب، ولكن الله تعالى أعطاه في المدينة بيتًا أفضل، إذ لم يكن له في مكة إلا عشرة أو عشرين ممن يفدونه بأرواحهم، أما المدينة فكانت كلها تفديه بأرواحها؛ النساء والأطفال والكبار.

أما ذكاؤه ﷺ فلم يزل يتمتع به إلى آخر لحظة في حياته. إن عقل المرء يضعف في آخر عمره عادةً، فيُسلب علمه شيئا فشيئا، ولكن عمره ﷺ لم ينقص مِن علمه وذكائه شيئا، بل كان كل يوم في حياته أفضلَ من سابقه. كذلك لم يزل الوحي

ينـــزل عليه إلى آخر لحظة، وقد زوّده الله بالجديد من المعارف والعلوم كل يوم. باختصار، لم يأت في حياته ﷺ يوم قال فيه الناس إن الرجل قد خرف وعقله ضعف و لم يعُد يعلم من بعد علمه شيئا، بل كل يوم جديد من حياته جاء بمزيد من العلم، فصار النبي ﷺ أكثر تعليمًا وتوعيةً للناس في كل يوم جديد، وهكذا تحقق قول الله تعالى بكل روعة ووضوح ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾..أي أن حالتك الأخيرة أفضل من حالتك السابقة.

ولقوله تعالى ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾ مفهوم آخر نظرًا لظاهرة القبض والبسط الروحانية التي سبق ذكرها. لقد قال الله تعالى عن رسوله ﷺ من قبل ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.. أي أن حالة بسطه الروحاني ستكون دليلا على معية الله له، كما أن حالة قبضه الروحاني ستكون دليلا على معية الله له، والآن طمأنه الله تعالى أكثر وأخبره أنك لن تتقدم في هذه الموجات الروحانية بوتيرة واحدة، بل ستظل تزداد رفعة باستمرار. الواقع أن الموجات نوعان: إحداهما تظل ترتفع وتنخفض في مقام واحد، والثانية تنخفض لتزداد رفعةً في كل مرة، وهذا هو المعنى الذي بينه الله في قوله ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾.. أي لا شك أنه ستأتي عليك حالات القبض والبسط، وفي كلتيهما سوف تتمتع بمعية الله ورضاه، ولكن هناك أمر زائد؛ وهو أن انخفاضك في كل مرة سيكون بمثل انخفاض الطائر في طيرانه، إذ ينخفض عندما يضرب جناحيه، ولكن انخفاضه هذا يرفعه في النهاية. وهكذا تمامًا سوف يزيدك انخفاضُك رفعة في كل مرة. فطيرانك كتحليق الطيور، فكل حالة قبض سوف تزيدك رفعة باستمرار.

ولهذه الآية مفهوم آخر، وهو أن الذي يدّعي أنه مبعوث من عند الله تعالى عندما يلتقي الناس يقولون إنه يريد عزًا وجاهًا، ولكن الله تعالى يفنّد ظنّهم هذا ويقول لرسوله: إنك إذا خلوتَ بنفسك فلِذِكْرنا، وإذا لقيتَ الناس فبأمرنا، فزعمهم هذا باطل لا أساس له. إنما تنفرد بنفسك لذكرنا، وإنما تقابل الناس لمصلحتهم لا لمصلحة شخصية. إن هؤلاء الجهال لا يعرفون عن حياتك شيئا. إنهم لا يعرفون أنك تحبّ حياة الانفراد والخمول، وإذا كنتَ تقابل الناس فلوجه الله

فقط. إذن فقوله تعالى ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾ يعني أنك ترى أن الآخرة أكثر راحة لك من الأولى. ذلك أن الخير يعني ما يجلب النفع والراحة. والآن تعالوا نرَ ما هو المراد من الآخرة والأولى في هذا السياق. لقد ذكر في الآيات السابقة الضحى أولاً والليل ثانيًا، وهكذا فالليل هو الآخرة، والضحى هو الأُولى، وحيث إن المرء يقابل الناس وقت الضحى أي وقت النهار، فتُعتبر الضحى بمثابة اللقاء، ويُعتبر الليل بمثابة الانفراد؛ وعليه فستعني هذه الآية: يا محمد، إنك ترى أن حالة انفرادك أكثر راحة لك من حالة لقائك بالناس. يظن الجهال أنك تحب العز والجاه والشعبية بين الناس، مع أنك إنما تقابلهم امتثالاً لأمرنا، إذ إن مناجاتك إيانا آناءَ الليل أحبُّ إليك من لقائهم، إذ متى يقدر الناس أن يعطوك ما نعطيك بالليل من البركات؟ وما دامت ترقياتك كلها منوطة بساعات انفرادك، وما دمتَ تؤثر ساعاتِ انفرادك بكل قلبك، فكيف يمكن أن تتألم من قول الناس أنك تحبّ العز والجاه؟ إذ ليس لاعتراضهم أساس من الحقيقة.

وهذا يماثل ما قاله المسيح الموعود عليه السلام إذ كتب:

"كنتُ في زاوية الخمول، ولم يكن يعرفني أحد، كما لم أكنْ أحبّ أن يعرفني أحد، فهو الذي (الله تعالى) أخرجني من زاوية الخمول قسرًا. لقد وددتُ أن أعيش خاملاً وأموت خاملاً، ولكن الله تعالى قال: سأنشر اسمك بالعزة في الدنيا كلها. فاسألوا الله تعالى لماذا فعل هكذا؟ وما ذنبي في ذلك؟" (حقيقة الوحي، الخزائن الروحانية مجلد ٢٢ ص ١٥٣)

فهذا هو معنى قوله تعالى ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾، بأن الله تعالى قد أخرج محمدا ﷺ من زاوية الخمول والانفراد جبرًا، أما هو فكان يفضّل أن يظل يذكر الله تعالى منفردا. وبالفعل نرى أن الملاك لما قال للنبي ﷺ في غار حراء ﴿اقرأْ﴾، فما كان جوابه ﷺ إلا أن قال: "ما أنا بقارئ" (البخاري: كتاب بدء الوحي).. أي: لماذا تفوّض إليّ هذه المهمة، فإني أحبّ أن أعبد ربي منفردا.

فالحق أن هذه الآية تفنيد لقول الكافرين بأن محمدا (ﷺ) يحب الجاه والعزّ بين الناس ولذلك يلتقي بهم. فقال الله تعالى لرسوله ﷺ إن هؤلاء الجاهلين لا يعلمون

أن ﴿الآخرة﴾ أي وقت الليل خيرٌ لك عندك إذ تجد فيها راحةً ومتعةً أكثر، ولا ترغب في لقاء الناس، وإذا كنتَ تقابلهم فإنما تقابلهم طاعة لأمر الله، وليس من عند نفسك.

لقد قلتُ لدى تفسير قوله تعالى ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ أن من مفاهيمه أننا سنكون معك في فترتي الرقي والانحطاط للمسلمين ولن ندَع عملك يُدَمَّر، ونظرًا إلى هذا المفهوم يمكن تفسير قوله تعالى ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾ بمعنى آخر وهو: أنه سيأتي ضحى بعد كل ليل دائمًا، وليس المراد أن الزمن الأخير يكون أفضل من الزمن الأول. ذلك أن فترة الظلمة والنور تتواليان بطريقين؛ أحدهما أن تأتي فترة النور ثم فترة الظلمة، وثانيهما أن تأتي فترة الظلمة أولاً ثم فترة النور. والله تعالى يخبر رسوله ﷺ أنه فيما يتعلق بك فتكون فترة الضوء هي الآخرة على الدوام. ذلك أن بعض الناس يرتقون أولاً ثم يسقطون، فلا يغبطهم الناس بسبب رقيهم، وإنما يتخدون العبرة من الدمار الذي حل بهم في نهاية المطاف. ثم هناك أمم تصعد فجأة ثم تسقط، ولكن بعضها تسقط ثم تصعد، ثم تسقط ثم تصعد. والله تعالى يخبر رسوله ﷺ هنا أنه سيعامله وأمته بالطريق الأخير، فإنه سيواجه المحن في البداية ثم يرتقي، وكذلك فإن أمته كلما أصابها الانحطاط بعث الله المأمورين أو المجددين الذين سينهضون بهم ثانية، وهكذا كل فترة تالية للانحطاط تكون أفضل منه.

وليكن معلومًا هنا أن الله تعالى لا يذكر هنا أن كل فترة روحانية تكون أفضلَ من فترة روحانية سابقة، لأن هذا المفهوم سيعني أن الفترات الروحانية في المستقبل ستكون أفضل من الفترة الروحانية للرسول ﷺ، وهذا باطل بداهةً. وإنما يخبر الله تعالى هنا أنه بعد كل انحطاط ستأتي على الأمة الإسلامية فترةٌ أفضل، فترتقي روحانيًا مرة أخرى. فالواقع أن الآية لا تقارن بين فترات روحانية مختلفة للأمة، وإنما تقارن كل فترة رقيّ روحانيّ مع فترة انحطاط روحانيّ.

وما ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قال عن أمته: "لا يدري أوّلُها خيرٌ أو آخرها خير" (مسند أحمد، حديث رقم ١٢٠٥٢)، فليس معناه أن الزمن الأخير

من هذه الأمة أفضل من الزمن الأول من حيث الروحانية.كلا، إنما أشاد الرسول ﷺ بالزمن الأخير نظرًا إلى كونه يأتي بعد زمن طويل من انحطاط المسلمين. إنما يقصد النبي ﷺ أنني لا أدري أن الشدائد التي مر بها الإسلام في بدايته هي أشدّ أم المحن التي سيواجهها في الزمن الأخير. والفرحة تقدَّر دائمًا بالنظر إلى الصعاب والمشاكل، فلذلك قال النبي ﷺ لا أدري آلموجودون اليوم خير أم الذين يكونون في الزمن الأخير من الإسلام. أي لا نستطيع القول -نظرًا إلى المصائب والمحن- ما إذا كان أهل هذا العصر أكثر حظًّا من النجاح، أم القوم الذين يكونون في زمن الإسلام الأخير.

باختصار، هذه الآية لا تعني أن كل فترة تالية أفضلُ من السابقة من حيث الروحانية، بل المراد أنه فيما يتعلق بك يا محمد، اعلمْ أنه ستأتي فترة النور والضوء بعد كل فترة ظلام دائمًا، وذلك إلى ما قرب القيامة.

غير أن هناك استثناء، وهو أن القيامة لن تأتي إلا على شِرار الناس. إذ يتضح من القرآن الكريم والحديث النبوي أن فترة الفساد الأخيرة التي تكون قرب القيامة إنما تأتي على الأشرار فقط (سورة الفاتحة، والبخاري: كتاب الفتن)، إذ لن يوجد عندها في الدنيا أبرار، وتلك الفترة مستثناة من قوله تعالى ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾. غير أنها ليست استثناء من وجهٍ، ذلك أن ذلك الزمن سيكون زمن انتهاء النبوة المحمدية، فلا يمكن أن تسمى تلك الفترة زمن الرسول ﷺ. لأن الدنيا ستنتهي، وستنتهي معها مهمة الرسول ﷺ في الدنيا أيضا.

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٦﴾

التفسير: أحدُ معاني هذه الآية أنه مما لا شك فيه أنك تواجه المعارضة من كل طرف وصوب، ويبذل الكافرون كل ما في وسعهم لسحق الإسلام والمسلمين، ولكننا قد سبق أن أخبرناك أنه ستأتي على الإسلام فترة الضحى، وها نحن نبشرك الآن أنه حان أن تنجح في مقصدك وترى الكفر يُباد أمام عينيك، وسوف تكتمل

بنصرة الله وتأييده مهمتك التي تراها الدنيا ضربًا من المحال، وسوف يعطيك ربك عن قريب ما ترضى به.

الحقيقة أن مكانة المرء وعظمته إنما تعرف من إنجازاته. والمهمة التي فوّضها الله لرسوله ﷺ كانت تقتضي وقتًا طويلا وجهودا كبيرة وتضحيات جسيمة، إذ كان الإنسان يظن برؤية تلك المهمة العظيمة أن إنجازها يقتضي عمر نوح، ولا يمكن إنجازها في وقت قصير؟ ولكن الله تعالى طمأنَ نبيه ﷺ بأنها مهمة عظيمة تقتضي وقتا طويلا في الظاهر بلا شك، ولكنا سنمكّنك من إنجازها بسرعة. وبالفعل قد حقق النبي ﷺ في وقت قصير إنجازاتٍ مذهلة لم يسبق لها مثيل في تاريخ العالم. خذوا أيها الجالسون أمامي ولاياتكم.. البنجاب والسند والسرحد مثلاً، فتعلمون أن هذه الولايات تسعى منذ قرن من الزمان لتثقيف سكانها وتعليمهم ومع ذلك لم يتعلم أهلها كلهم. ثم إنهم يسعون منذ قرن من الزمان لتطوير تمدُّنهم، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك، ويحاولون إصلاح أخلاق الناس منذ قرن من الزمان، ولكنهم لم ينجحوا في ذلك أيضًا كل النجاح.

إذن، فهذه الجماعات المختلفة تسعى لإنجاز أعمال شتى منذ قرن من الزمان، إلا أننا نجد وكأنها لا تزال في يومها الأول، إذ لم يزدهروا ثقافةً ولا مدنيةً ولا أخلاقًا. وفي المقابل نجد أن دين الإسلام بلغ غاية ما بعدها غاية. ثم إنه جاء بالإصلاحات بكل أنواعها، فقد أراد إصلاح الناس مدنيًا واقتصاديا وعائليا وسياسيا وفكريا. ثم إنه رسم لهم مستوى عاليًا في كل هذه الإصلاحات. وعندما عهد الله هذه المهمة إلى الرسول ﷺ أخبره أيضا أنك سترى الضحى بأم عينيك. وحيث إن المحب لا يطيق فراق حبيبه طويلا، ويحب العودة إليه والوصال به في أقرب فرصة، فكان طبيعيًا أن يصاب النبي ﷺ بالقلق ويفكّر: لا أدري متى تنتهي هذه المهمة، فلعلها تنتهي في خمسين سنة أو ستين سنة أو مائة سنة، فكيف أظل بعيدًا عن حبيبي كل هذه المدة. وهذا ما تشير إليه هذه الآية حيث أخبر الله تعالى رسوله لعلك تقول في نفسك أننا نتحدث عن مهامك المتعلقة بالدنيا ولكنا لا نذكر الأمر الأساس الذي قد أَهَمَّك. لا شك أن مهمتك عظيمة جسيمة، ولكننا

سنمكّنك من إنجازها بسرعة، سوف نعطيك قريبًا ما ترضاه. بمعنى أن إنجاز هذه المهمة يتطلب مئات السنوات بلا شك، ولكنا سنتمّ لك كل أهدافك بسرعة، وسوف تصل إلينا بسرعة قائلا: إلى الرفيق الأعلى، إلى الرفيق الأعلى، ويتحقق لك ما ترضاه، أي ستحظى بوصالنا وستنتهي لحظات الفراق الصعبة.

ورد في الحديث أنه لما نزلتْ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾(سورة النصر) قام الرسول ﷺ بين الناس خطيبًا وقال: إن لكل نبي مهمةً إذا أنجزها بدأ الله تعالى بعصر جديد. ثم قال النبي ﷺ: كان هناك عبد من عباد الله تعالى خيّره أن يبقى في الدنيا أو يرجع إليه، فقال: رب لا أريد البقاء في الدنيا الآن، بل أفضّل أن تدعوني إليك. فلما سمع أبو بكر قول النبي ﷺ أخذ في البكاء. فاحتار باقي الصحابة لبكائه، ويقول عمر قلت في نفسي متضايقًا: الوقت وقتُ فتح الإسلام، فلماذا يبكي هذا العجوز؟ هذا شؤم! لقد خيّر الله تعالى عبدًا من عباده في أن يبقى في الدنيا أو يرجع إليه، فآثر العودة إلى الله، فما الذي يبكيه، لا سيما أن الله تعالى قد بشّرنا بفتح الإسلام وغلبته. أما أبو بكر فلم يزل في بكائه حتى قال الرسول ﷺ: لو كنتُ متّخذًا خليلا مِن أمتي لاتخذتُ أبا بكر. ثم قال: لا يَبقَيَنَّ في المسجد نافذةٌ إلا سُدّتْ إلا نافذة أبي بكر" (البخاري، كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد). وهكذا أخبر النبي ﷺ الحضورَ أن أبا بكر قد فهم قصدي من ذكر هذا الأمر، فإنني لا أرضى بالبقاء في الدنيا، بل إن سعادتي وراحتي كلها في العودة إلى ربي وحبيبي ﷻ. فمهمتي قد اكتملت، وبقائي في الدنيا عبث الآن، وأتمنى أن يدعوني ربي إليه. لم يفهم سائر الصحابة قصد الرسول ﷺ ولكن أبا بكر فهمه، فغلبت عليه الرقة، فطمأنَه الرسول ﷺ أنك إذا كنتَ تحبّني فأنا أيضا أحبّك، حيث قال ﷺ: "لو كنت متخذا خليلا في الدنيا لاتخذت أبا بكر". كما أشار في هذا الحديث إلى أن هذه المسؤولية ستقع بعده على أبي بكر، ولذلك أمر ﷺ بسدّ كل النوافذ إلا نافذة أبي بكر. وكانت الحكمة في ذلك أن أبا بكر سوف يأتي إلى المسجد للصلاة بالناس، فيجب أن تظل نافذته مفتوحة.

باختصار، كانت أكبر أمنية للرسول ﷺ أن يحظى بوصال ربه وينجز مهامه في الدنيا بأسرع ما يمكن ليحضر إلى الرفيق الأعلى قائلا: لبيك اللهمّ لبيك. وبالفعل فإن آخر كلمة جرت على لسان النبي ﷺ في مرض الموت هي قوله: "اللهم الرفيق الأعلى" (البخاري: كتاب المغازي).. أي ليس لي أمنية الآن إلا أن أحضر إليك يا ربي.. رفيقي الأعلى. باختصار، إن قوله تعالى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ إشارة إلى أن إنجاز المهمة التي فوّضت إليك يا محمد يتطلب زمنا طويلا بلا شك، ولكنا سوف نوفقك لإنجازها بسرعة. وبالفعل نرى أن النبي ﷺ قد أنجز أعماله كلها في مدة قصيرة.. ٢٣ سنة.. مما لا يوجد له نظير واحد في تاريخ العالم، بل ليس ثمة مثال لرجل واحد أنجز جزءًا من مئات آلاف من أجزاء مهام الرسول ﷺ. لقد خلا في الدنيا كثير من الرجال العظام، ولكن عاقبتهم كانت وخيمة وصاروا عبرة لمن اعتبر. خذوا هتلر مثلا، ماذا كان مصيره؟ وانظروا إلى نابليون، كم كانت عاقبته سيئة! لقد هبّ هؤلاء بدعاوى واسعة، وقد حققوا بعض النجاح فعلاً في الظاهر، ولكن لم يكن مآلهم إلا الفشل والخسران. ولا يغيبنّ عن البال أن هؤلاء ورفقاءهم كانوا من أُممٍ تتحلى بروح التضحية سلفًا، وكانت متحمسة للسيطرة على العالم. لا شك أن نابليون قد حقق نجاحًا، ولكنه خرج برفاقٍ كانوا ينتمون إلى أمة متقدمة، ولا شك أن هتلر قد حقق انتصارات، ولكن كان من الشعب الألماني الذي كان حتى قبل ولادة هتلر من أكثر الشعوب نضالاً وتضحية في العالم. ولكن كيف كانت حالة العرب؟ لقد أُعطي النبي ﷺ روثًا فحوّله ذهبًا في غضون عشرين سنة فقط، ولم يحوّله ذهبًا فحسب، بل ذهبًا خالصًا صافيًا. لقد أصلح أخلاقهم ومدنيتهم، وزادهم علمًا وسطوةً وهيبةً وعزًا وشأنا، ولم يبق جانب من جوانب حياتهم إلا وأكمله، ولا شعبة من شعب حياتهم إلا أخذهم فيها إلى الذروة. لقد قام ﷺ بكل نوع من الإصلاح، سواء كان أخلاقيا أو دينيا أو عقائديا أو عائليا أو اقتصاديا أو سياسيا، ولذلك قال الله تعالى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾.. أي يا محمد، لا تقلق، سوف ننجز لك مهمتك العظيمة بسرعة. لا شك أننا ألقينا عليك مسؤولية جسيمة، ولكنا نعرف أيضا أن سعادتك تكمن في

الوصال إلينا، ولذلك نعِدك أننا سنحقّق لك النجاح السريع في مقاصدك ومهامك. وكما قلت فقد أنجز النبي ﷺ في وقت قصير مهمة عظيمة لم ينجزها أحد مثله قط. كان عمر النبي ﷺ عند وفاته ٦٢ سنة شمسية فقط، في هذا العمر القليل قد أنجز إنجازًا عظيمًا جدًا بشكل مذهل.

والمفهوم الثاني لهذه الآية أن الشريعة ستكتمل على يدك. ذلك أن الإنسان يرضى بالكمال دائما، فقوله تعالى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ يعني أننا سنعطيك حتى تقول بنفسك أن لا مزيد عليه. فما دام ﷺ قد أُعطيَ آخر الشرائع، فماذا عسى أن يسأل بعدها؟ لا شك أن قرب الله ومدارجه شيء غير محدود، ومن المحال أن يقول الإنسان لست الآن بحاجة إلى المزيد من قرب الله تعالى، لكن فيما يتعلق بالشريعة فلا مجال للمزيد بعد نزول آخر وأكمل الشرائع، ولذلك قال الله تعالى لرسوله لسوف نعطيك حتى تقر بنفسك أن لا مزيد عليه. إذن، فالمعنى الثاني أننا سنعطيك الشريعة الكاملة.

والمعنى الثالث لهذه الآية أننا سنقيم نظامًا دائمًا لحماية الإسلام في المستقبل. الواقع أن أوّل أُمنيات المرء أن ينجز مهمته بسرعة، وثاني أمنياته أن يكون عمله متكاملا في حد ذاته، وثالث أمنياته أن لا يضيع عمله أبدا. فقوله تعالى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ يضمن تحقُّقَ الأمنيات الثلاث للنبي ﷺ، حيث قال له: سوف نمكّنك من إنجاز مهمتك بسرعة، كما نعطيك شريعة كاملة، ونزيد على ذلك بوعد إضافي بأنه كلما وقع نقص وخلل في مهمتك بعدك فسوف نقيم أحدًا من ذريتك الروحانية لإصلاح الخلق، ولن ندع الإسلام يهلك ويباد.

كم يفرح الناس عندما يرزقون أولادا! لماذا؟ إنما ذلك لأن أولادهم يحيون اسمهم. وفرحتهم هذه تكون زائفة أحيانًا، لأن الأولاد الذين يفرحون بولادتهم يُذلّونهم ويهينونهم، ولكن الله تعالى يقول لرسوله الكريم: لك فرحة حقيقية، فكلما كنتَ بحاجة إلى ابن روحاني أعطيناك إياه، فيأتي ويحيي مهمتك في الدنيا من جديد.

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾

التفسير: أي إذا كان الناس تساورهم الشكوك عن مستقبلك، وإذا كانوا يقولون كيف نصدّقها فهي مجرد دعاوى! وكل إنسان يمكن أن يدعي لغيره أنه سيحصل على كذا وكذا، ولكن ما قيمة هذه الأقاويل والدعاوي؟ فانظر أنت وكذلك هؤلاء الذين تغزوهم الشكوك إلى ماضيك، أَلَمْ نَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَيناك وحميناك من كل خسارة؟

لقد توفي والد النبي ﷺ وهو لا يزال في بطن أمه، وعندما وُلد ﷺ ألقى الله تعالى حُبَّه في قلب جده عبد المطلب بشكل خارق. في مثل هذه الأحوال يهتمّ المرء عادةً بأولاده بدلاً من حفدته، ولكن عبد المطلب كان أحيانًا يزجر أبناءه مع أنهم كانوا قد بلغوا سن الشباب وكانوا يخدمونه أيضا، ولكنه كان يحب النبي ﷺ حبًا غير عادي بحيث لم يكن يطيق اختفاءه عن أنظاره ولو فترة قصيرة. كان يحتضنه دائمًا وينشد الأبيات في حبه، وكان يلوم أبناءه أنهم لا يولونه العناية الكافية.

وكان من عادة العرب أن يبعثوا أولادهم للمراضع، فأرادت أم النبي ﷺ أن تجد له مرضعة، ولكنها لم تجد أي مرضع بسبب فقرها، وفي الأخير اختار الله تعالى حليمة السعدية لتنال شرف هذه الخدمة العظيمة، ذلك بعد أن رفضَ حليمةَ أهل كل بيت لفقرها قائلين: إذا أعطيناك ولدنا فمن أين تطعمينه؟ وهذا يعني أن المرأة التي أراد الله تعالى تربية النبي ﷺ في بيتها قد حرّم عليها مواليدَ أهل مكة كلها، فحيثما ذهبت قيل لها كيف نعطيك وليدنا، فمن أين تطعمينه؟ إذن، ففي ذلك اليوم، كان في مكة كلها وليدٌ لم تأخذه أي مرضع معها، وكانت هناك مرضعة واحدة لم تجد أي وليد لتأخذه معها. وفي المساء عندما يئست حليمة من أن تجد أي وليد تأخذه معها، كما يئست أم النبي ﷺ من أن تجد أي مرضع له، ألقى الله في قلب حليمة أن تأخذ هذا الوليد وإن كان يتيما ومن بيت فقير، لأنها لو رجعتْ خاويةَ الوفاض فسيضحك منها الناس. فأتت إلى بيت النبي ﷺ وأخذته من أهله. فألقى الله تعالى حبه ﷺ في قلبها بشكل خارق فلم تُطِقْ فراقه ولو لوقت قصير،

وإذا اختفى عن نظرها بعض الوقت لم يقرّ لها قرار. ورد في التاريخ أنه ﷺ إذا اختفى عن أنظارها قليلا كانت تزجر أولادها وتقول لهم أين تركتموه؟ ثم كانت تجري لإحضاره. (السيرة الحلبية، الجزء الأول)

باختصار، لقد وجد النبي ﷺ مرضعةً ودودًا كحليمة لتربيته في غياب أبيه، وجَدًّا محبًّا مثل عبد المطلب، ثم بعد وفاة جدّه ألقى الله محبّتَه في قلب عمه أبي طالب، فكان يكنّ له ﷺ حبا شديدا. وعندي أنه قلما قام عمّ بتربية ابن أخيه بمثل ذلك الحب. وعندما شبّ ﷺ وترعرع ألقى الله حبَّه في قلب امرأة ثريّة، وجعلها ترغب في الزواج منه بنفسها لسموّ أخلاقه، وهكذا هيّأ الله تعالى له البيت والأثاث.

ثم إن اليتيم يكون بحاجة إلى الأصدقاء. عندما يكون الوالدان حيّيْن يصادق الكثيرون ولدهما طمعًا في رضاهما، وإذا مات الأبوان قطعوا معه كل الصلات و لم يفكّروا في مصادقته. وكان النبي بحاجة طبيعية إلى الزملاء والأصدقاء لكونه يتيم الأبوين، فأعطاه الله أصدقاء كأبي بكر وحكيم بن حزام. لقد أسلم أبو بكر ﷺ في بداية البعثة، أما حكيم فظل كافرا لمدة مديدة، ولكنه رغم كفره كان يتصدى لمن يعارض النبي ﷺ. وذات مرة خرج للتجارة، فوجد هناك ثوبًا راقيا أعجبه، فقال هذا الثوب لا يليق إلا بصديقي محمد (ﷺ)، فاشتراه وذهب به إلى المدينة وقال للنبي ﷺ: لقد أعجبني هذا الثوب فاشتريته لك، إذ رأيت أنه لا يليق إلا بك، فقال النبي ﷺ: إني لا أقبل هديةً من كافر، فخُذْ مني ثمنه إذا أردتَ أن تعطيني. فقال حكيم: إذا كنت لا تقبل هدية فابعث لي ثمنه، لأني أحبّ أن تلبسه. (السيرة الحلبية، الجزء الأول، وجمهرة نسب قريش وأخبارها، تحت: وُلد حكيم بن خويلد)

انظرْ إلى هذا الحب والعشق الذي يبديه كافر تجاه النبي ﷺ! إنه لا يزال على دينه، ومع ذلك يحب النبي ﷺ هذا الحب الشديد، فيشتري أفضل شيء عنده وأكثر ما يعجبه ويرى أن محمدا ﷺ هو أولى به وأهله، ثم يقطع مسافة مئات الأميال من مكة إلى المدينة لكي يقدم هديته للنبي ﷺ. لم يوفقه الله للإيمان مدة طويلة ربما لأنه تعالى أراد بذلك أن يثبت للعالم أن الناس يحبون محمدًا ﷺ لسمو أخلاقه لا لسبب آخر.

ثم منحه ﷺ الله تعالى رفاقًا لا يتيسرون ليتيم آخر من أمثال زيدٍ الذي كان مِن العبيد، وعليٍّ الذي كان من أقاربه ﷺ.

وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

ضالا: ضلَّ الرجلُ: ضدُّ اهتدى: أي جارَ عن دين أو حق أو طريق. وضلَّ فلان الطريقَ أو عن الطريق: لم يهتدِ إليه. وكذا ضلَّ الدارُ والمنـــزلُ وكلُّ شيء مقيم لا يُهتدى له. (الأقرب)

أحيانًا يضل المرءُ الطريقَ وينحرف عنه، وأحيانًا لا يكون عنده عِلم بالطريق، و لفظ "ضَلَّ" يحتوي على المفهومين.

"وضلَّ فلان الفرسَ والبعيرَ: ذهبا عنه. وضلَّ عني كذا: ضاعَ. وضلَّ الرجلُ: مات وصار ترابا وعظاما. وضلَّ الماء في اللبن: خَفِيَ وغاب. (الأقرب)

ومن معاني الضلال الانهماك في عمل حيث قال الله تعالى ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(الكهف:١٠٥).. أي أنهم صرفوا جهودهم كلها في أعمال الحياة الدنيا. كما أن الضلال يعني الحب الشديد، وهذا المعنى يماثل مفهوم قوله تعالى ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ لأن المرء بسبب حبه لشيءٍ يتوجه إليه كلية.

ويقول صاحب المفردات إن قول أبناء يعقوب له ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(يوسف:٩) إشارةٌ إلى شغفه بيوسف وشوقه إليه. وكذلك ورد الضلال بمعنى الحب الشديد في قوله تعالى ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(يوسف:٣١). فثبت أن من معاني الضلال العديدة: الحب الشديد.

التفسير: ونظرًا لشتى معاني كلمة الضلال يفسَّر قوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضالاً﴾ بمفاهيم عديدة، أوّلُها: لم تكنْ، يا محمد، تعرف طريقنا، ولا شريعتنا، ولا سبل وصالنا، فأنزلنا عليك شريعتنا وأريناك طريقنا.

لا يسع أحدا إنكار أن رسول الله ﷺ وُلد في بلد لم تكن فيه أي شريعة، ومع ذلك كان ﷺ متوجهًا إلى الله تعالى ليل نهار متمنيًا قربه ووصاله. كان في ذلك البلد نصارى ويهود، وكان عندهم وحي الله تعالى، ومع ذلك لم يكونوا متوجهين إلى الله تعالى، بل كانوا يعيشون غافلين عنه تماما. أما محمد ﷺ فرغم أنه لم يكن عنده أي من كلام الله تعالى ولا وحيه إلا أنه كان متوجها إليه ﷻ. أليس من البراهين الساطعة على عظمته ﷺ وسموّ مكانته بأن الذين كان عندهم وحي الله تعالى كانوا بعيدين عنه سبحانه، أما الذي لم يكن عنده أي وحي رباني فظلَّ يتقرب إلى الله تعالى باستمرار. لما رأى الله تعالى أن هذا الإنسان يريد وصالنا، ولكن لا علم له بسبل قربنا ووصالنا، أنزل عليه شريعته وكشف عليه طرق وصاله وقربه كلها.

واعلم أن عدم اطلاع النبي ﷺ على سبل قرب الله تعالى ووصاله في البداية ليس مما يقدح فيه، فكل نبي ذي شرع جديد لا يكون مطلعا على هذا السبيل، وإنما يطّلع على طرق الشريعة بعد أن ينـــزل الله تعالى عليه وحيه. وهذا ما بيّنه الله تعالى هنا فقال: يا محمد لم تكن تعرف الطريق إلينا، فأعثرناك فضلاً منّا على الطريق الذي كنت تبحث عنه.

ومن معاني ضلّ: خَفِيَ وغابَ، وعليه فهذه الآية تشير إلى عظيم قدرة الله تعالى وشفقته وإحسانه على النبي ﷺ إذ أخرجه من زاوية الخمول والخفاء. يقول الله تعالى: يا محمد، سيأتي لك الضحى حتمًا في يوم من الأيام، وسوف يحرز الإسلام والمسلمون رقيا عظيما، وسوف يثني عليك الناس ويقولون: يا لروعة هذا الرجل ولفضائله ومحاسنه! كيف أحدث ثورة عظيمة في العالم، وأتى بالإنسانية الضالة التائهة إلى أعتاب الله تعالى! ولكننا سنقول لهم: عليهم أن يفكّروا ويروا من الذي اختارك، ومن الذي انتخبك لهداية العالم، ومن الذي أخرجك من زاوية الخمول وعرضك أمام الدنيا. نحن الذين اخترناك. نحن الذين وجدناك درةً يتيمة خفية عن أعين الناس.. لا يعرفون قدرها وثمنها ويجهلون بريقها ولمعانها، فأخرجناها من معدنها وقدّمناها أمام العالم. لقد وجدناك جوهرةً فريدة ملقاة في أرض الكفر،

فأخذناها فثبّتناها في تاج الإنسانية. يثني العالم على حسنك وجمالك وجلالك وكمالك وينبهر بلمعانك، ولكنهم لا يرون أن كل ذلك إنما كان فضلاً منا عليك. لقد كنتَ مختفيًا تمامًا عن أعين الناس حتى لم تكن تعرف أنت ما فيك من كفاءات وقدرات، فضلاً عن أن يعرفها غيرك، فأخرجناك من زاوية الخمول، وكشفنا عظمتك وشوكتك للعالم. ولولا ذلك لما اطّلع أحد على فطرتك السليمة. نحن الذين عرفناك وأخرجناك من زاوية الكتمان والخمول وأذعْنا صيتك في الدينا كلها.

ومن معاني الضلال: الحبُّ الشديد، وعليه فستعني هذه الآية: يا محمد، لقد وجدناك شديد الحب لنا ملتاعًا للوصول إلى خالقك. كنتَ تفكِّر في خلق السماوات والأرض، فكانت فطرتك تفتي أن للكون إلهًا خالقا، ولكن القوم الذين خُلقتَ بينهم لم يكن عندهم شرع ولم يعرفوا طريق وصال الله تعالى. لقد وجدناك أشدَّ حنينًا وشوقًا وحبًا لخالقك من يعقوب ليوسف، إذ كانت فطرتك توجّهك إلينا، ولكنك كنت لا تهتدي طريقًا يؤديك إلينا. لقد كانت أصابع الطبيعة تشير لك أن هناك خالقًا لك مالكًا لك رازقًا لك، فكنت تنظر في كل طرف وصوب قائلا: أين خالقي وأين مالكي وأين رازقي، فإني أريد وصاله. لم يكن عندك شريعة تهتدي بها إلينا، فلما رأينا حبّك والتياعك لنا ناديناك: يا محمد، تعال نحن هنا.

ومن معاني الضلال: الموت والهلاك، حيث يقال: ضل الرجلُ: أي مات وصار ترابا، وعليه فقوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ يعني: يا محمد، لقد رأيناك تهلك نفسك حزنًا على ضلال قومك ودمارهم. كنتَ ترى كفرهم ورذائل أخلاقهم من سرقة وسطو وإسراف وغيرها من العيوب الأخلاقية والعائلية، كما كنت ترى تخلُّفَهم عن باقي الأمم علمًا وسياسة، فكنت تموت من أجل إصلاحهم كما كنت تموت من أجل وصالنا، وكنت تهلك نفسك حزنا على كفرهم كما كنت تهلك نفسك شوقًا للقائنا، فوجدناك كما وصفناك في موضع آخر من القرآن الكريم ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(الشعراء:٤). فلما وجدناك هالكًا في التفكير ليل نهار للنهوض بقومك هديناك إلى سبيل إنقاذهم من هذا الموت.. أي

أعطيناك القرآن الكريم الذي هو الضمان الوحيد للنجاة من الدمار ليس لأهل مكة فحسب، بل للعالم كله.

إذن، فقوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالا﴾ إشارةٌ إلى ما في قلب رسول الله ﷺ من عاطفة فياضة لإصلاح قومه بل العالم كله. وكما قلت آنفًا إن هذه الجملة هي في الحقيقة ترجمةٌ لقوله تعالى ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، إذ الباخع مَن يذبح الذبيحة بشدة حتى يكاد يقطع رقبتها كلها (المنجد، ولسان العرب). فكأن الله تعالى يقول لرسوله، يا محمد، لقد كدتَ تقتل نفسك حزنًا وألمًا على كفر قومك وابتعادهم عن ربهم، كجزار يكاد يقطع عنق الذبيحة كلها.

باختصار، فنظرًا إلى حب النبي ﷺ لله تعالى، يعني قوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ أننا وجدناك صريعَ حُبِّنا إلى أقصى حدّ، فهديناك إلى سبيل وصالنا، أما بالنظر إلى شفقته ﷺ على قومه، فيعني أننا وجدناك كالهالك حزنًا على قومك، فأعطيناك الشريعة لتنهض بهم وتجعلهم يشاركون في سباق الرقيّ.

إذن، فهذه الآيات تتحدث عمّا أنعم الله على النبي ﷺ من منن وأفضال، فأخبر ﷻ بقوله ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾.. أي أنه فيما يتعلق باليُتْم المادي، وجدناك يتيمًا، فأعطيناك أقارب ماديين. كنتَ بحاجة إلى من يتولى تربيتك بحب ولطف ويسدّ حاجاتك، فأقمنا أشخاصًا -واحدًا بعد الآخر- تولّوا العناية بك على أحسن وجه، وأعانوك إعانة مادية عند الحاجة على الدوام. أما اليتم الروحاني، فعالجناه بحبنا وفيوضنا وأفضالنا، حيث أعطيناك شريعة قادرة على أن تأخذ أهل مكة من الحضيض وترفعهم إلى ذروة الرقيّ.

لا شك أنها تبدو مجرد دعوى ادعى بها محمد ﷺ، ولكن لم يكن اختبارها بأمر صعب، إذ كان القرآن الكريم بين أيدي القوم، فكان بإمكان الناس أن يروا ما إذا كان فيه تعاليم قادرة على النهوض بالأمم أم لا. أما فيما يتعلق بما كان النبي ﷺ يتمتع به من قرب الله وزلفاه، فكان بإمكانهم أن يروه من خلال استجابة أدعيته والآيات الإلهية التي كانت تظهر على يديه. باختصار، ما كان بإمكانهم إنكار صدق قول الله تعالى ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾. فبضرب

هذين المثالين يُطَمْئِنُ الله تعالى نبيّه ويقول: لقد تولينا رعايتك ماديا وروحانيا على الدوام، وأيدناك بنصرنا عند كل خطوة. عندما كنت بحاجة إلى العناية المادية هيأنا لك إياها، حينما كنتَ بحاجة إلى الرعاية الروحانية نظرنا إلى روحك بشفقةٍ وتحنّنٍ، عندما اتَّقَدتْ شعلة حبنا في قلبك أريناك وجهنا، ولما فار حبُّ الإنسانية في قلبك وضقتَ ذرعًا برؤية مساوئ الناس، أنزلْنا عليك شريعتنا القادرة على إصلاحهم وسداد أمرهم. فما دمنا قد غمرناك بحبنا وعطفنا فيجب أن يكون هذا دليلا كافيا أن أنباءنا عن الضحى وترقياتك القادمة سوف تتحقق حتما. ما دام الله لم يخذلك في الماضي فكيف يخذلك في المستقبل؟

قد يعترض علينا معترض قائلا: لقد أخذتَ كل معاني الضلال إلا واحدًا وهو الانحراف عن الطريق والوقوع في الفساد، فلماذا لا تفسّر الآية هكذا: وجدناك منحرفا عن الهدى فهديناك؟

والجواب: يفسر العدو هذه الآية بأن محمدا ﷺ كان منحرفًا عن طريق الشريعة – والعياذ بالله– فهداه الله، ولكنا أهملنا هذا المعنى لأنه لا ينطبق على الرسول ﷺ، وإن كان صحيحًا لغةً. ذلك أن الهداية في الدنيا نوعان فقط: هداية شرعية وهداية فطرية. وسؤالنا للذين يصرّون على المعنى الذي تركناه: كيف تفسّرون هذه الآية؟ هل معناها أن محمدا (ﷺ) ضلّ عن الشريعة التي كان القوم عليها؟ لا شك أن هذا المعنى باطل وخلاف الواقع، إذ لم تكن هناك شريعة عند العرب، وإن ألدَّ أعداءِ الإسلام أيضًا لا يقولون أن قوم محمد ﷺ كانوا على شريعة وانحرف عنها. فالأمر الذي هو باطل بداهةً بحيث لا حاجة بنا لتفنيده، لا يمكن عَزْوُه إلى الرسول ﷺ، ولا يجوز تفسير هذه الآية بما يريدون. فما دامت الشريعة غير موجودة في وقت النبي ﷺ ولم يكن مخاطَبا مِن قِبل أي شريعة، فما معنى ضلاله وانحرافه؟ لم تكن عند الأمة التي وُلد فيها محمد ﷺ شريعةٌ ولا قانون سماوي يعملون به، ولم يكن عندهم وحي يتبعونه، فكيف يصح القول أن محمدا كان قد انحرف عن الشريعة؟

والمعنى المحتمل الثاني هو: لم تكن عندئذ شريعة، ولكن محمدا كان منحرفًا عن الشريعة الفطرية، بمعنى أنه –والعياذ بالله– كان سيئ الأخلاق، موصومًا بالرذائل،

منحرفا عن جادة الاعتدال الفطري، مخالفًا لقوانين الهداية الفطرية من أخلاق فاضلة وطبع سليم، فقوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضالاًّ﴾ إشارةٌ إلى هذا الأمر.

تعالوا نرَ فيما إذا كان هذا المعنى ينطبق على محمد رسول الله ﷺ أم لا. الواقع أن الله تعالى قد فنّد هذا المعنى في موضع آخر من القرآن الكريم حيث أمر رسوله ﷺ أن يتحدى الناس أن يُثبتوا أي عيب من حياته السابقة البالغة أربعين سنة. وقد تحداهم النبي ﷺ بالفعل وقال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(يونس:١٧).. أي لقد عشت بينكم أربعين سنة، وأنتم شاهدون على حياتي، فأَجْمِعوا أمركم وابحثوا عن أي عيب فيها، اعلموا أنكم لن تستطيعوا ذلك، لأن حياتي نزيهة تماما، وأن الله تعالى قد حماني في كل وقت من أي معصية.

إذن، فلا ينطبق هذا المعنى أيضًا على النبي ﷺ. لقد بطلت تهمتهم بأنه ﷺ انحرف عن الشريعة إذ لم يكن عند قومه ﷺ شريعة على الإطلاق حتى يُتَّهَمَ بانحرافه عنها، كما بطل زعمهم بسوء أخلاقه ﷺ، إذ تحدى النبي ﷺ في القرآن قومه أنني عشت بينكم فترة طويلة، ولكنكم لن تجدوا أي عيب في حياتي. لم يكن المراد من هذا التحدي أنني عشت بينكم طويلا فهل رأيتموني أنحرف عن أحكام القرآن الكريم في حياتي؛ إذ بدأ نزول القرآن عند هذه الدعوى و لم يكن له وجود قبلها. فثبت أن هذا التحدي يتعلق بالهداية الفطرية لا الهداية الشرعية، فأمر الله رسوله ﷺ أن يتحدى القوم أنهم لن يستطيعوا أن يثبتوا انحرافه عن الهداية الفطرية، أي اتخاذه أي موقف يتنافى مع الأخلاق الفاضلة، ولو مرة في الأربعين سنة الماضية من حياته. فما داموا لا يستطعيون أن ينسبوا إليه عيبًا في كل تلك المدة، فكيف يقولون أنه قد أصبح شريرًا الآن؟

باختصار، لا يمكن أن ينطبق أي من هذين المعنيين على النبي ﷺ، ففيما يتعلق بهداية الشرع فحتى النصارى يسلِّمون أنه لم يكن عند أهل مكة أي قانون شرعي قبل القرآن، وما دام هؤلاء غير ملتزمين بأي شريعة فكيف يصح تفسير قوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضالاًّ﴾ بأن محمدا انحرف عن الشريعة؟ أما معنى انحرافه عن الهداية الفطرية فلا يمكن أن ينطبق عليه ﷺ أيضًا، لأن القرآن قد تحدّى القوم حول أخلاقه ﷺ

الفاضلة. ما دام المعنيان لا ينطبقان عليه ﷺ فكيف يقول أعداء الاسلام أن معنى هذه الآية أن محمدا كان ضالا بالمعنى المعروف؟

وقد يقول قائل هنا أن قوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضالًّا﴾ شهادةٌ إلهية بحق محمد، أما قوله ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ فهي شهادة محمد بحق نفسه، ولا بد أن نعتبر شهادة الله أصح من شهادة محمد بحق نفسه.

والجواب أن الشهادة التي يقدّمها محمد ﷺ بحقه ليست شهادته هو، بل هي شهادة الله بحقه في الحقيقة، إذ نسَبها الله إلى نفسه حين أمره: قُلْ.. فالآية الكاملة كالآتي: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(يونس:١٧).. أي نحن نقدّم هذه الشهادة بحقك ونأمرك أن تتحدى قومك أن يثبتوا أي عيب في حياتك إن استطاعوا. فبقوله تعالى ﴿قل﴾، قد ضم الله شهادته إلى شهادته ﷺ بحق نفسه، حتى لا يقال أن محمدا قد قالها من عنده. إذن، فليس بين الشهادتين أيُّ تعارض.

عندما يحاصَر الخصم هنا ولا يجد بيده برهانا، يقول لقد نسب محمد هذا القول إلى الله تعالى، إنها مجرد دعوى وثرثرة لسان لا قيمة لها ولا دليل عليها، إنما علينا أن نرى ما إذا كان بريئا من العيوب عند الناس أم لا، لأنهم يعرفون الحقيقة، فإذا كان الجواب لا، فقوله باطل لا أساس له، ومجرد دعوى لا قيمة لها.

فنقول ردًّا على الخصم إننا حين نفحص الأمر نجد حُسن شهادة الناس بحق محمد ﷺ، فالثابت تاريخيا أن القوم كانوا يسمونه ﷺ قبل دعواه الصادق الأمين، وكانوا معترفين بصلاحه وسداده إلى أقصى حدّ. فلما أُمر النبي ﷺ بإنذار قومه صعد على الصفا وأخذ ينادي القبائل بأسمائها، فلما اجتمعوا قال: أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ قَالُوا نَعَمْ مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلا صِدْقًا (البخاري، كتاب التفسير، سورة الشعراء). مع أنه قولٌ ما كان لأحد أن يصدّقه في بادئ الأمر، إذ لم يكن هناك جبل كجبال دلهوزي مثلا، وإنما كان هناك تلٌّ فحسب، وكانت مواشي أهل مكة ترعى وراءه في الوادي، وكان من المستحيل أن يختفي فيه جيش، إذ لم تكنْ به غابة ولا

أشجار، بل هو عراء، ولو كان هناك جيش لعلم به القوم، ولما قال لهم الرسول ﷺ: أَكُنْتُمْ مُصدِّقِيَّ؟ قال الجميع: سوف نصدّقك.. أي أنه أمر مستحيل، ولكننا نقبل قولك إذ لم تكذب قط. فلما أعربوا عن ثقتهم به ﷺ قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فعليكم بإصلاح أنفسكم. فلم يلبث القوم يتهمونه بالجنون وانفضّوا ساخرين.

إن شهادة العدو هذه لبرهانٌ ساطع على ما كان يتحلى به النبي ﷺ من صدق وسداد.

كذلك لما اختلفت قريش على وضع الحجر الأسود في مكانه عند إعادة بناء الكعبة حتى كادوا يقتتلون بالسيوف، تقدّمَ النبي ﷺ ورفع خلافهم. ورد في التاريخ أن القوم حين رأوا النبي ﷺ قادمًا قالوا: "هذا الأمين، رضينا، هذا محمد." (السيرة لابن هشام، حديث بنيان الكعبة)

هذه شهادة ثانية من الكفار على نزاهة حياة النبي ﷺ قبل الدعوى.

ثم إن الزوجة هي أقربُ شاهد على زوجها؛ إذ تعرف من أحواله ما لا يعرفه الآخرون، ولذلك تُعتبر شهادتها بشأنه أقوى الشهادات. ونجد أن شهادة زوجته أيضًا كانت في صالح النبي ﷺ. لما نزل عليه الوحي أول مرة ذكر ذلك لخديجة في فزع، فطمأنَتْه بقولها: "كَلا، وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ." (البخاري، بدء الوحي). فقولها: تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ يعني أنك تتحلى بأخلاق قد صارت معدومة بين الناس.

فشهادة زوجة النبي ﷺ في حقه أيضًا تؤكد أنه لم يكن ضالاً بالمعنى الذي يريده العدو.

هذه الشهادة قد أدلت بها خديجة -رضي الله عنها- حين كان النبي ﷺ في الأربعين من عمره، لكن هناك شهادة أخرى على صلاحه وسداده وأمانته ﷺ حين كان في الرابعة والعشرين من عمره. مرةً بعثتْ خديجةُ الرسولَ ﷺ بمال تجارتها إلى الشام، فلما رجع سألتْ كلَّ واحد من عبيدها الذين رافقوه ﷺ عن سلوكه، فأثنى

الجميع عليه ﷺ، وقالوا لم نر أحدًا مثله في الأمانة ودماثة الأخلاق. كانت خديجة تدرك أن الذين يُبعَثون مع القوافل التجارية يأكلون الكثير من المال، ولكن هؤلاء العبيد أخبروها أن محمدا ﷺ لم يأكل من أموالها شيئا، كما لم يسمح لهم أن يتصرفوا بأموالها تصرفًا غير مشروع، فلم يكن ينفق على حاجاته من طعام وغيره إلا ما سمحتْ به له، فأعجبت خديجة بأمانته وأخلاقه، فبعثتْ إليه أنها تريد الزواج منه. (السيرة الحلبية: باب سفره ﷺ إلى الشام ثانيًا، وباب تزوُّجه ﷺ)

فكل الشهادات التي نجدها عن النبي ﷺ منذ صغره إلى بلوغه الأربعين لتشهد على أنه لم يضلّ أبدًا من الناحية الأخلاقية، بل كانت حياته كلها بريئة من أي عيب. فليُخبِر الخصوم الآن: كيف يمكن أن ينطبق لفظ الضال على الرسول ﷺ بالمعنى الذي يريدونه! لم يكن ﷺ ضالاً عن الشريعة إذ لم يكن عند قومه شريعة، كما لم يكن ضالاً من الناحية الأخلاقية؛ إذ تؤكد الشهادات كلها أنه كان متحليا بأخلاق فاضلة جدا، فما هو الضلال الذي كان فيه؟ أما إذا قالوا أنه كان ضالاً عن الكفر، فنحن متفقون معهم ونقول: نعم، إنه ﷺ لم يتّبع سبيل الكفر أبدا. فثبت أن المعنى الذي يذكره الخصوم باطلٌ قطعًا، لأن أحداث حياة النبي ﷺ كلها تُبْطِله تماما.

وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

عائلا: عالَ عِيالَه: كفاهم معاشهم ومانَهم. وعالَ اليتيمَ: كفَله وقامَ به. عالَ فلان عولاً: كثُر عِيالُه. (الأقرب)

التفسير: لهذه الآية مفهومان، أوّلُهما: وجدناك كثير العيال فسددْنا حاجاتك، والثاني: وجدناك الشخصَ الوحيد الذي يعتني بالأيتام وعديمي الحيلة، فأعطيناك المال لسدّ حاجاتهم. وتفصيل المفهوم الأول هو أنك لم تكن قادرًا على سد حاجات أهلك، فأعطيناك الثروة وأزلنا فقرك. أما تفصيل المفهوم الثاني فهو أنه

كانت عندك رغبة عارمة لأن تؤوي كل فقير وتعين كل مسكين وتساعد كل عديم الحيلة بائس الحال، وتسد حاجاتهم حبًّا ومواساةً لهم، فوضعنا ثروتنا في أيديك لتكون كفيلاً لعبادنا الفقراء البائسين.

والغنى هنا مادي وروحاني أيضًا، واليتامى والمساكين أيضًا ماديون وروحانيون. فكان النبي ﷺ يكنّ للفقراء واليتامى الماديين في زمنه من الشفقة والمواساة والحب ما لا نجد نظيره في العالم. كان يتألم برؤية بؤس الفقراء، فكان يقضي أيامه ولياليه حزنًا على أنه ليس هناك من يساند الفقراء ويتفقد اليتامى ويعتني بالمساكين، أما هو ﷺ فهو فقير لا يجد أسبابًا لإزالة فقرهم. والله الذي كان يعلم أسرار قلبه عندما رأى شفقته وعطفه عليهم هيأ الأسباب لتحقيق رغباته النبيلة حيث ألقى ﷻ في قلب زوجته ﷺ خديجة أن تضع كل أموالها في يده ﷺ، فسلّمت له كل أموالها بعد الزواج ليتصرف فيها كيفما شاء. ويتضح من تحرِّي أحوال خديجة –رضي الله عنها– أنها لم تكن تملك الآلاف بل مئات الآلاف، إذ كان العديد من قوافلها التجارية يتردد دائمًا إلى الشام، وهذه التجارة الواسعة لا يديرها إلا من يملك مئات الآلاف. ونتيجة لهذه التضحية الرائعة من خديجة وجد النبي ﷺ أموالاً طائلةً، فقام بتوزيعها على الفقراء واليتامى والمساكين، وهكذا حقّق أمنيته القديمة.

أما المعنى الثاني للآية فهو أن محمدا ﷺ لم يكن الوحيد الذي كان يرغب بشدة في وصال الله وقربه وكلامه، بل كان في الجزيرة العربية عبادٌ آخرون يلتاعون حبًا لله وتقربًا إليه لكي يجلسوا في كنفه ويسمعوا كلامه اللذيذ الحلو، ولكنهم لم يكونوا يجدون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً. كانت عندهم لوعة للفوز بقربه ورضاه تعالى ولكن ما كانوا يعرفون السبيل إلى علاجها مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وزيد وطلحة والزبير وغيرهم. فكل هؤلاء القوم كانوا يذوبون حبًّا لله تعالى، كانت عيونهم تدمع راغبين في وصال الله وكانت قلوبهم تلتاع حنينًا للقاء حبيبهم؛ ولذلك قال الله تعالى لمحمد ﷺ: لما رأينا أن هناك عبادًا في مكة بل في العالم كله يحبوننا ويبحثون عنا ويحنون شوقًا لوصالنا مثلك، زودناك بما يشفي غليلهم ويزيل قلقهم،

فأخذوا يسارعون إلينا بكل قوة. فكأن هذه الآية تبيّن أن الله تعالى آتى رسولنا ﷺ تعليمًا يشفي غليل كل فطرة، وهكذا هيأ له الأسباب لرعاية عياله الروحانيين، فليس هناك فطرة لا يستطيع النبي ﷺ شفاء غليلها، وليست هناك طبيعة لا يوجد تعليم موافق لها في كتابه. وكأن الله تعالى يقول: لا شك أن الكافرين لا يمكن أن يسلّموا بصدق تعاليم الإسلام الشاملة، ولكن عليهم أن يروا -على الأقل- ما هي حالة قلوب المؤمنين به الآن. ألم يجدوا السكينة والاطمئنان؟ ما السبب أن المؤمنين به كانوا قلقين مضطربين قبل الإيمان و لم يكونوا يعرفون غايتهم المنشودة، ولكنهم لما آمنوا بمحمد نالوا ثلج الصدر وأدركوا أنهم قد حققوا الهدف الذي خُلقوا من أجله؟

هذا هو الأمر الذي نقدّمه اليوم مرارًا كدليل على صدق المسيح الموعود عليه السلام قائلين: يمكنكم أن تستمرّوا في المعارضة، ولكن هل بوسعكم أن تبينوا السبب وراء الطمأنينة التي فاز بها المؤمنون بالمسيح الموعود عليه السلام والسكينة التي نزلت على قلوبهم حيث يرون أنهم قد وصلوا إلى ربهم؟ هل هذه السكينة تنـــزل على أتباع كذاب؟ كلا إنما يحظى بهذه البركة مَن يتمسك بأهداب مأمورٍ رباني صادق.

باختصار، يخبر الله تعالى نبيه بأنك، يا محمد ﷺ، لست الوحيد الذي ربيناه فحسب، بل هيّأنا بواسطتك أسباب تربية مئات الآلاف من اليتامى والمساكين. فهناك اليتامى والمساكين الفقراء والبؤساء الماديين الذين يأكلون على مائدتك شاهدين على صدقك، كما أن هناك اليتامى الروحانيين -كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير- الذين ينعمون بالسكينة القلبية بتأثير تعاليمك وهم يشهدون أننا كنا جياعًا فما شَبِعْنا إلا على مائدة الهدى التي قدّمها هذا الإنسان المقدس. هذا دليل على أن الله تعالى سيكون معك ويؤيدك بنصره دائمًا، إذ كيف يمكن أن يخذلك في المستقبل وهو الذي لم يزَلْ يصلح أمورك ويحقق مرادك حتى اليوم و لم يخذلك طرفة عينٍ؟

ومن معاني هذه الآية أنه كلما ازداد عياله ﷺ الروحانيين أمدَّه الله لرعايتهم بالأسباب. وبالفعل لم يتيسر لأي نبيٍ أو صالحٍ رجالٌ يعلّمون الناس دينَه بقدر ما

تيسّروا للرسول ﷺ، ولذلك قال ﷺ أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم.
(تشييد المباني في تخريج مكتوبات الإمام الرباني ص ٢٠، وتحفة الأحوذي للمباركفوري)

فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴿١٠﴾

شرح الكلمات:

لا تَقْهَرْ: قهَره: غلَبه. يقال: أخذتُهم قهرًا: أي مِن غير رضاهم. (الأقرب)

وفي المفردات: "القهرُ: الغلبةُ والتذليل معًا، ويُستعمل في كل واحد منهما."

التفسير: أي يا محمد، حيث إننا قد عاملناك بلطف دائمًا، فنأمرك أن تعامل اليتيم دائما بلطف وبدون قهر وقسوة. عليك أن تنمّي دائمًا أخلاقك النبيلة التي زوّدناك بها، متذكّرًا أنك كنتَ يتيما، فتولّينا رعايتك. اعلمْ أن لنا عبادا أيتاما كثيرين، فلا تعاملهم بإهانة، بل اعملْ على النهوض بهم وإكرامِهم وتطويرهم وسدِّ حاجاتهم دائما.

ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: يقول الله تعالى لبعض عباده يوم القيامة: يا عبادي، كنتُ جائعا فلم تطعموني، وكنت ظامئًا فلم تسقوني، وكنت مريضًا فلم تعودوني. فيقول العباد في قلق: ماذا تقول لنا ربنا؟ متى كنتَ جائعا و لم نطعمك، وظامئا و لم نسقك، ومريضا و لم نَعُدْك؟ فأنت الذي تطعم الناس جميعًا، وتسقيهم وتسدّ حاجاتهم، وليس بوسعنا نحن عبادك الضعفاء أن نطعمك ونسقيك ونعودك؟! فيقول الله لهم: صحيح ما تقولون، ولكن كان بعض عبادي جياعًا فلم تطعموهم، وعطاشى فلم تسقوهم، وعُراةً فلم تكسوهم، وحيث إنكم لم تسدّوا حاجاتهم وأهملتموهم فكأنكم أهملتموني. كان عبادي هؤلاء في كروب وآلام، ولو أطعمتموهم وسقيتموهم وكسوتموهم فكأنكم أطعمتموني وسقيتموني وعُدْتموني، لكن لم تؤدوا هذا الواجب. (مسلم، كتاب البر والصلة)

وورد في الإنجيل أيضا أن الله تعالى سوف يدعو بعض عباده يوم القيامة ويقول لهم: يا عبادي: جُعْتُ فَأَطْعَمْتُمُونِي، عَطِشْتُ فَسَقَيْتُمُونِي، كُنْتُ غَرِيبًا فَآوَيْتُمُونِي،

عُرْيَانًا فَكَسَوْتُمُونِي، مَرِيضًا فَزُرْتُمُونِي، مَحْبُوسًا فَأَتَيْتُمْ إِلَيَّ. فَيُجِيبُهُ الأَبْرَارُ حِينَئِذٍ قَائِلِينَ: يَا رَبُّ، مَتَى رَأَيْنَاكَ جَائِعًا فَأَطْعَمْنَاكَ، أَوْ عَطْشَانًا فَسَقَيْنَاكَ؟ وَمَتَى رَأَيْنَاكَ غَرِيبًا فَآوَيْنَاكَ، أَوْ عُرْيَانًا فَكَسَوْنَاكَ؟ وَمَتَى رَأَيْنَاكَ مَرِيضًا أَوْ مَحْبُوسًا فَأَتَيْنَا إِلَيْكَ؟ فَيُجِيبُ الْمَلِكُ وَيَقُولُ لَهُمْ: الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: بِمَا أَنَّكُمْ فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدِ إِخْوَتِي هؤُلاَءِ الأَصَاغِرِ، فَبِي فَعَلْتُمْ. (مَتَّى ٢٥: ٣٥-٤٠).. أي أجازيكم عليه وأدخلكم الجنة.

فقوله تعالى ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾ إشارةٌ إلى هذا الأمر نفسه، أي يا محمد لقد كنتَ يتيمًا فتولّينا تربيتك، واليوم يوجد في الدنيا الكثير من عبادنا الأيتام، فمن واجبك الآن أن تتولى تربيتهم وتعمل على تنفيس كرباتهم.

لقد تبين من الحديث المذكور أعلاه أن قضية رعاية اليتامى والمساكين بالغةُ الأهمية، لأن الله تعالى ينسب رعايتهم وعدمها إلى نفسه، فمَن أحسن إلى اليتيم فاز برضى الله، ومن أهملَه أو عاملَه بقسوة أثار غضب الله.

كما أن قوله تعالى ﴿لا تَقْهَرْ﴾ إشارةٌ إلى أن رعاية اليتيم يجب أن تتم بحيث لا تؤدي إلى إفساده، أي علينا ألا نقسو عليه كيلا ندمّر كفاءاته وقدراته، فنحول دون رقيّه وتقدُّمه، كما ينبغي أن لا نرفق به أكثر من اللازم حتى لا يضيّع أوقاته ويدمّر كفاءاته. ذلك أن القهر يعني الغلبة؛ فقوله تعالى ﴿لا تَقْهَرْ﴾ يعني: لا تعاملوه بحيث تتغلبون عليه وتستولون على قواه العقلية والجسدية، فتحولوا دون رقيه. الواقع أن الإنسان يتوقف عن الرقي بسببين: إما بسبب شدة متزايدة أو بسبب رفق متزايد، فبقوله ﴿لا تَقْهَرْ﴾ قد نهانا الله تعالى عن الشدة المتزايدة وعن الرفق المتزايد أيضا، وأوصانا بمعاملة اليتيم بما يساعد على تربيته تربية جيدة.

وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴿١١﴾ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

لا تَنهَرْ: نَهَرَ السائلَ: زجَره. (الأقرب)

التفسير: أي لا تزجر السائل؛ إذ كنتَ أنت أيضا سائلا حيث كنتَ تسألنا حبًّنا، فلم نردّك خائبًا، بل آتيناك كل ما طلبتَ، والآن سيأتيك الناس سائلين، فعليك أن تهتمّ بهم وتحقق مرادهم.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ فاعلمْ أن التحديث بالنعمة يتم بطريقين: أحدهما أن يشكر الإنسان ربه على مننه في انفراد ويخر أمامه ساجدا بسبب أفضاله المتتالية ويثني عليه بلسانه كثيرا. وثانيهما أن يذكر للناس بلسانه ما أنعم الله عليه من مننه ويقول: كم هي عظيمة مننُ الله علي. فالله تعالى يأمر هنا رسوله: عليك أن تشكرنا بلسانك على ما أنعمنا به عليك من نِعَم، كما عليك أن تتحدث عنها بين الناس بكثرة، أو المراد: عليك أن تستمتع بما آتيناك من نِعَم، ويجب أن تتجلى آثارها عليك، كما ينبغي أن تتصدق منها وتوزعها على الناس.

اعلم أن الله تعالى قد ذكر ثلاثة أمور من قبل فقال ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾، وقد ذكر إزاءها ثلاثة أمور في هذه الآيات فقال: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.. أي كنتَ يتيمًا فآويناك في كنفنا، وكنت تسألنا حُبًّنا ونجاةَ قومك فوهبنا لك حبنا وهيأنا لك الأسباب لنجاتهم، وكان حولك كثير من اليتامى الروحانيين والماديين فزوَّدناك بما تسدّ به حاجاتِهم، فمِن واجبك الآن أن لا تعامل اليتامى بما يقصم ظهورهم ولا ترُدَّ من بابك عبادي الذين يأتونك سائلين حُبًّنا، بل عليك أن تحقِّق لهم ما يريدون كما حقَّقنا لك ما كنت تريد. ثم لا تنس أننا وجدناك عائلا، فآتيناك المال والغنى، فينبغي الآن أن تشكرنا على هذه المنن، فتمتّعْ بها بنفسك ووزِّعْها على الآخرين أيضًا.

اعلم أن الإسلام لا يعلّم أن يردّ المرءُ نِعَمَ الله تعالى ولا ينتفع بها. ولكن مِن سوء حظ المسلمين أن قومًا منهم يرون بسبب جهلهم بالروحانية أن استعمال نعم الله تعالى يخالف الروحانية، ويقولون أنه لا يليق بالروحانيين أن يأكلوا ويلبسوا جيدًا ويتمتعوا بنعم الله تعالى. والحق أنها روحانية مصطنعة ابتدعها هؤلاء القوم ولا

علاقة لها بالإسلام ولا بالعرفان. إنما أمَرنا الله تعالى ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.. أي أن على الإنسان أن ينتفع بكل نعمة تتيسر له وينفع بها الآخرين، ولا يردها كما يفعل بعض الكهنة ورجال الدين.

إذن، فمن الناحية الروحانية ستعني هذه الآية: عليك أن تعمل بما آتيناك من تعاليم وتجعل الآخرين يعملون بها. أما من الناحية المادية فستعني هذه الآية: عليك أن تنتفع بما آتيناك من نِعَم وتنفع بها الآخرين.

باختصار، هذه الآية تذكير رباني لرسوله بما خوّله من نعم وأفضال، حيث قال الله تعالى له ﷺ: لقد كنتَ يتيما فتولينا رعايتك، فالآن ينبغي أن تهتمّ باليتامى كما اهتممنا بك. وقد أتيتَنا سائلا حُبَّنا فحقَّقْنا لك مرادك، فالآن سيأتيك الناس سائلين، فمن واجبك أن تحقق لهم ما يريدون. ووجدناك عائلا فأغنياك بالمال. يوجد في الدنيا كثيرون لا عِلْمَ لهم بما أنزلناه عليك من نور من السماء لهدايتهم، إنهم يعيشون في ظلمات الجهل ولا تصلهم أشعة هذا النور السماوي، وقلوبهم تحنّ شوقًا ليفوزوا بحبّنا، وليكون حبُّنا غذاءً لهم، وليسري عشقنا في كل ذرة من كيانهم، ولكنهم لا يدرون أين تلك الشعلة التي يفدونها بأرواحهم طائفين حولها. لقد أغنيناك بغنى من السماء لكي تتمكن من تبليغ صوت الرب القدوس هذا إلى أهل الدنيا كلهم؛ فنادِ بين الناس حق النداء، وبلِّغْ اسم الله تعالى إلى جميع أنحاء العالم حق التبليغ، وأيقِظْ النيام من سباتهم حق الإيقاظ، ووزِّعْ على الناس ما آتيناك من نعم وخزائن حق التوزيع، فهذه هي الغاية التي بعثناك من أجلها.

اعلمْ أن مقارنة هذه الآيات الثلاث بالآيات الثلاث السابقة أيضا تؤكد أن الضلال في قوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ لا يعني معناه العادي المعروف، ذلك أن الله تعالى قد ذكر مقابلَ قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ أهميةَ رعاية اليتيم، ثم ذكر مقابلَ قوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ التحديثَ بنعم الله، فلا بد أن يفسَّر قوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ على ضوء قوله تعالى ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾، فيكون المعنى: أنك أتيتَنا سائلاً حُبَّنا، فحقّقْنا لك مرادك وآتيناك الهدى.